الدكتور حسن هويدي

الوجود الحق

براهين علمية قاطعة تدحض الإلحاد وتثبت الإيمان

المكتب الإسلامي

سلطان

الدكتور حسن هويدي

الوجود الحق

براهين علمية قاطعة تدحض الإلحاد وتثبت الإيمان

طبعة مزيدة ومنقحة

أشرف على تدقيقه

عصام فارس الحرستاني

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ٢٧٧١/١١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أيها القارىء الكريم

لَعَلَّكَ تَعْجَبُ من ابتدائي لكَ رسالتي (بالتسمية)، وأنا أُريدُ أنْ أُحَدِّثَكَ عن قصةِ الوجودِ من البداية، وأنتَ غير مُسَلِّمٍ لي بحقيقةِ الإيمان إلى النهاية، وأنا مُعَارِضٌ لكَ بالعقلِ، وأنتَ غير مُذْعِنٍ لي بطريقة النقل، ولكن لعلَّ عَجَبَكَ يزولُ إذا فرغتَ من قراءةِ الرسالة، أو تُسَلِّم لي على الأقلِّ، بأنْ أكونَ منسجماً مع ما تَبَيَّنَ لي أنه الحق.

وإنني حينما أضَعُ بين يديكَ هذه الرسالة ـ تبحثُ في الوجودِ والموجودِ، والخالقِ والمخلوق، والبدايةِ والنهاية، والخيرِ والشر، والسعادةِ والشقاءِ، معترفاً بتقصيري عن تناولِ بحثٍ جَلَّتْ خُطورَتُه، وفاقَتْ كُلَّ ضرورةٍ ضرورتُه ـ أجِدُني مَسُوقاً إلى ذلك بالدوافع التالية:

إنَّ هذا الموضوعَ أصلٌ تنشأُ عنه جميعُ الفروع، ولا يَسْلَمُ الفـرعُ إلا إذا سلم الأصلُ، وهو حقيقةٌ تُبْنَى عليها الأحكامُ، وتُقـاسُ عليهـا النتـائـج، ولا تصـح النتـائـجُ إلّا إذا صَحَّت المقـدمـات، ولذلك فهو من الأهمية في مكان تتضاءل أمامه الغايات والمقاصد مهما جَلَّتْ، قديماً وحديثاً.

وأن أكثرَ الناس حينما يعرضونَ لهذا الأمر لا يلتزمون فيه العقلَ والمنطق، وإنما تكونُ أحكامُهم اتِّباعاً لأهوائِهم، أو جرياً على سننِ أسلافهم، أو تقليداً للشائعةِ الحديثةِ بين أقرانهم.

وإنَّ الأكثرية تَجْهَلُ ما وَرَدَ في القرآن الكريم من حججٍ دامغة حول هذا الموضوع، فأردتُ إظهارَ ما كان خافياً منها، وإيصاله إلى مَنْ كان مُعْرِضاً عنها، ولستُ أفرضُ عليكَ ذلك فَرْضاً دونَ أن تقرأ وتفكر وتقدر، غير غافلٍ عن شروطِ التحقيق، من التجرد، وحُسْنِ الفَهْم، والإحاطة.

وإنَّ واقـع شبـابنـا الحائر يقتضي وَضْعَ هذا البحث بين أيديهم إرواء لِغُلَّتهم وكشفـاً عن ضالتهم، ذلـك أن تركهم وشأنهم يبحثون في زوايا الكتب القديمة والحديثة، مع ما في ذلـك من صعـوبـاتٍ لغـوية، ومشكلاتٍ فلسفية، واتجاهاتٍ

خاطئة، وأحكام باطلة، وما يَسْتدعيه مثلُ هذا السعي، من مجاهدةٍ نفسية ودأب متواصل، وفكرٍ حاذق، أقول: إن تَرْكَهم وشأنَهم في هذه المهامه، وإسلامهم دون شفقة إلى هذه المهالك، تضييعٌ واستهتار لا يرتضيهما الإنسانُ الغيور المُنْصِفُ لبني الإنسان.

وقد بحثتُ في فرضية (دارون) بحثاً يتناسبُ وأسلوبَ هذه الرسالة في التحديدِ والاقتصارِ على الأصولِ، ولقد دفع إلى هذا الاهتمام ما يثيرهُ أنصاف المثقفين من أدعياء العلم من الشبهاتِ حول الإيمان بالله العظيم مستندين في ذلك إلى فرضية (دارون) التي أنهت مشكلةَ خلق الإنسان ـ في زعمهم ـ بما أخرجته للناس من بحثِ النشوء والارتقاء. ولقد خاضوا خوضاً باطلاً، تَجلَّى في جهلِ الفرضية ذاتها لدى فريقٍ منهم حيث تَعَصَّبُوا لها ولعاً بالجديد، وجرياً على التقليد. وتجلَّى في ضَعْفِ العينِ الفاحصةِ والقدرةِ على النقدِ لدى فريقٍ آخر. حيث اكتفوا بأدلةِ الإثبات التي يروجها أنصار الفرضية، وأعرضوا عن أدلة النفي التي تدحض الفرضية، فنظروا من وجهٍ واحد، وأعرضوا عن الوجه الآخر، فأخطأوا الصوابَ، وتعلقوا

بالسراب. ولو كان لدينا ـ ونحن نمر في فترة انحطاط ـ علماء لديهم الإحاطةُ والنزاهةُ، وعمق التفكير ودقة النظر، لما كنا حيالَ هذه الفرضيةِ الواهيةِ، مقلدين تقليدَ الببغاء، خانعينَ خنوعَ البلهاء، نتبع كل ناعقٍ دونَ تثبت ولا تمحيص.

ولعل من قبيلِ التفاؤل بنفع هذه الرسالة، لا من قبيل الدعاية والغرض، أنْ نذكرَ قصةً صغيرة تتعلقُ بطبع هذا البحث قبل أن ينشر ويوضع بين أيدي القراء.

كلفتُ أخاً لي بطبع هذه الرسالة منذ عدة سنوات وسلمته النسخةَ المخطوطة، ولم يكن في حوزتي نسخة عنها، فأضاع الأخُ النسخة في طريقه إلى دمشق، ولما رجع من سفره كان أسَفُهُ شديداً، لما يعلم من اهتمامي بالموضوع، وخُلُوِّ مكتبتي من نسخةٍ أخرى، وهو يقدر أن الوقتَ لا يسنح لي بالكتابةِ على الرغم من حضورِ الأفكار، لأنَّ مثلَ هذا الموضوع لا يأتي بالاصطناع، ولا يتحصل بمجرد النقل، فرضيت بالواقع وخففتُ عن الأخ وَجْدَهُ وقلت: إن كان فيه خيرٌ ونفعٌ للناس فعسى أنْ ييسر الله أسبابَ العثورِ عليه، وانطوى البحث.

فاجأني الهاتفُ بعد مدة بوجودِ النسخة في إحدى القرى

النـائية، وكـانت قصةُ فقدها أن الأخ انتقل في إحدى مراحل سفره من سيارة إلى أخرى، ونسيَ النسخةَ في السيارة الأولى، وقصدت السيارة بلداً آخر ومنه توجهت إلى قرية من قرى تلك النـاحية، وقد خطر للأخ أن يكلف أحدَ المسؤولين في ذلك البلد بتحري السياراتِ المتوجهة إليه في ذلك اليوم، وقد فعل ولكنه لم يظفر بالسيارة. غير أنه لم ييأس، ولو أنَّ اليأسَ يخامر النفسَ في مثل هذه الأحوال، فاستمر يسألِ في القرى التابعة للمنطقة إلى أن عثرَ على النسخة في أحد بيوتِ القرية لم يَنَلْهَا شيءٌ من تلف كان قريباً منها ومحيطاً بها، وأُعيدت إلي سالمة لم تمس بسوء.

وقد تجد أيها القارىء أثناء مطالعة هذه الرسالة شيئاً من العُمْقِ تَسْتلزِمُهُ طبيعةُ البحث، فارجو ألا تَضيقَ به ذرعاً. وقد تجدَ حجةً دامغة، وبيِّنَةً واضحة، فأرجو أنْ يكون نصيبكَ منها التسليم للحق، لأنه ليس وراء التفكير السليم والبرهان الناصع من وسيلةٍ تسترشِدُ بها ﴿فماذا بعد الحق إلاّ الضلال﴾ [يونس: ٣٢].

وقد تجد إصراراً على تأكيدِ الحكمِ بعد ثُبوتِهِ، وليس ذلك

من قَبيلِ التَّعَصُّبِ العامي، والإصرار السطحي، وإنما قصدتُ إلى ذلك قصداً، تقريراً له في العقل، وتبديداً لما يعارضه من باطلِ القول.

وقد تُعْرِضُ بعد قيامِ الحجةِ، وظهورِ البينة، وأرجو ألاَّ يكونَ ذلك نصيبكَ من البحث، فأنتَ المسؤولُ حينئذٍ عن الخطأ، لإيثارِكَ هواكَ على الحجةِ القاطعةِ، والبرهانِ الصريح - وذلك هو التعصبُ العامي والتقليدُ الممقوت - ولا تَلُمْ أحداً بعد ذلك عن سُوءِ النتائج، فإنما هواكَ أخرجكَ عن جادةِ الصواب.

﴿فإن لم يَسْتَجِيبُوا لكَ فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعُونَ أهواءهم. ومَنْ أضَلُّ مِمَّن اتَّبعَ هواه بغيرِ هُدَى من الله﴾ [القصص: ٥٠].

هذا، ولا أقول: إنني سأستوفي الموضوعَ إسهاباً وتفصيلاً، أو أكون فيه على مستوى العصمةِ إصابةً وتحقيقاً، ولكني أقدمُ قَدْرَ استطاعتي من الخطوطِ الأساسية، ما أتمنى أنْ أُوَفَّقَ فيه إلى الحق، وأنْ يقعَ من القراءِ موقعَ الحجةِ والبرهان. والله الموفقُ الهادي إلى سواء السبيل.

دمشق ١٠/ شعبان ١٣٩٤هـ
٢٨/ آب ١٩٧٤م

حسن هويدي

الوجـــود

قبل أنْ نبحثَ في فلسفةِ الوجود، يجب إثباتُ الموجود.

وإنَّ قضية إثبات الوجود وإنْ كانت قضيةً فلسفية جافةً على الصعيدِ الفلسفي، أو بديهية لا تحتاجُ إلى برهان على الصعيد الحِسِّي، لكننا نرى أنه لا غِنَى لنا عن التعرضِ لها، لكي نقطعَ دابرَ الشك في البدايةِ، فَيُسْلِسُ لنا البحثُ القيادةَ في النهاية.

إننا حينما نذكرُ الوجودَ، نذكر العَدَمَ، وحينما نذكر العدمَ، نكونُ بين أمرين: إما أنْ ننفيه فنكون قد أثبتنا الوجودَ، وإما أن نُثْبِتَهُ فنكون قد أثبتنا حقيقةً، وإذا أثبتنا حقيقةً أثبتنا الوجود، إذاً فالعَدَمُ المطلق مُحَالٌ.

أو أنْ نقـول: إذا أثبتنـا أو نفينا، فقد أثبتنا أنفسنا، إذن فالوجودُ قائم، والعدم المطلق محال، وذلك هو الذي جاء به (ديكارت) حينما قال: «أنا أفكر، إذن أنا موجود» وقد سبقه إلى ذلـك (ابن سينـا) بأجلى من ذلـك وأوضـح، فاشتهر البرهانُ

للمُتَأخِّرِ والفضلُ فيه للمتقدم.

ومنه الوجود المطلق، ومنه الإضافي، كما أنَّ منه العدم المطلق، وهو محال، ومنه الإضافي وهو واقع، فالمطلق من الوجود: ما لا حَدَّ له من البدايةِ والنهاية، وهو الأزليُّ الأبدي، وسيأتي الكلامُ عليه، والإضافي: ما اقترنَ ببدايةٍ، أو نهاية، وكان عُرْضَةً للتغير، وسيأتي الكلامُ عليه أيضاً في حينه، كما سيأتي الكلام على العدم الإضافي المقابل للوجود الإضافي.

وإذا كان للحواس دورٌ كبيرٌ في نقلِ الصورِ الحسية لتكونَ طريقاً إلى إدراكِ الوجود، فلا يفوتنا أنْ نذكرَ أنَّ الحواس تقصرُ تقصيراً بَيِّناً عن إدراكِ بعضِ ما في الوجود، بعد أنْ ثبت وجودُه ثبوتاً علمياً لا مجالَ لإنكاره.

فالعينُ ترى الألوانَ ولكنها تقفُ عند حَدٍّ معين محصورٍ في الطيف الضوئي، ولا ترى ما فوقَ الأحمر، ولا ما تحتَ البنفسجي، كما أنها لا تستطيعُ بذاتها تقديرَ البُعْدِ الثالثِ مما ينشأ عنه نِسبيةٌ في ضبطه لولا التجربةُ والحساب.

والأذنُ تسمع الأصواتَ، ولكنها لا تسمعُ إلّا ما وقعَ تَواتُرُهُ بين حَدَّيْن معينين، وهي بالنسبة لِبُعْدِ الصوتِ وقُرْبِهِ عاجزةٌ عن

التقدير أيضاً، فقد تُفَسِّرُ الهزةَ الضعيفةَ بأنها هزةٌ عنيفةٌ آتية من بُعْدٍ، أو أنها فعلاً هزة ضعيفة مصدرها قريب، أي: أنَّ ما تنقلُه إلى موطنِ الإحساسِ عن الاهتزازِ العنيفِ البعيدِ هو ما تنقله عن الاهتـزازِ الضعيفِ القـريبِ، بغضِّ النظرِ عن الطابعِ أو اللحنِ المميز.

والجلد ينقلُ الإحساسَ بالحرارةِ والبرودة، ولكن إحساسَهُ بها نِسْبِيٌّ، فاليدُ الحارة إذا غَمَسْتَها في ماءٍ دافىء، تَجِدْهُ بارداً، واليدُ الباردةُ إذا غمستها في الماء الدافىء نفسه، تجده حاراً، وهُوَ هُوَ ما اختلفتْ درجةُ حرارته، ولكنَّ الإحساسَ الذي نقلته حاسَّةُ اللمسِ كان متناقضاً مختلفاً.

وهكذا نجدُ أنَّ الحواسَّ التي هي منافذُ الإدراك الأولى، لا تحيطُ عِلْمـاً بجميع المـوجودات، وتلحقها النسبيةُ في بعض الإدراكات، وهذا يلفتُ النظرَ إلى أنَّ الحواس لا تكفي وحدها لمعرفةِ الوجود والإحاطة بكُلِّ موجودٍ، وبالتالي يَسقطُ نَظَرُ مَنْ يقول: إنه لا يؤمنُ إلّا بما تَراهُ عينه أو يقعُ تحتَ حِسِّه.

ونحنُ إنما نلاحظُ هذه الملاحظةَ في شأنِ الحواس، وما تنقلُه إلى موطنِ الإحساس، وما ينشأُ عنه من إدراكٍ، ليستقيمَ

نَظَرُنَا إلى الوجودِ منذ اللحظة الأولى، ولنضبطَ المقاييسَ، ونستعملها جميعاً في سبيل الحصولِ على المعرفة، ولكي لا نقعَ في شَطَطِ الإفراط، ولا ظُلْمِ التفريطِ، فإنَّ مَنْ قَصَرَ المعرفةَ على الحواس حُرِمَ المعرفةَ، ومَنِ افتتنَ بنسبية ما تَسُوقُه الحواسُّ، وأنكرَ نفعها، وقع في الرَّيبيةِ المطلقة، ولكنَّنا نستعملُ الحواس، ونُصْغي إلى العقلِ، ونذكرُ النسبية، ونضعُ كلاًّ في موضعِه، ونستعمله ضِمْنَ حُدودِه.

وعندَ ذِكْرِ الوجودِ وثبوتِه، نذكرُ فريقاً من الناس يقولون جِيالَ قضيةِ الوجود بالريبية المطلقة، وهي شكوكٌ لا تقفُ عند حَدٍّ، أو هي (اللاأَدْرِيَّة) في المادةِ والمعنى، فإنْ سألتَ أحدَهم: هَلْ هُو موجودٌ؟ قال: لا أدري!

هل يشعرُ بنفسه؟ قال: لا أدري!

أَهَذَا الأمرُ خَيْرٌ أم شَرٌّ؟ قال: لا أدري!

فهو في ظُلُمَاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وهذه الرَّيبيةُ المطلقة مَنْقُوضَةٌ من ذَاتِها، ذلك أنَّ الريبي المطلق إذا حكم حُكْماً فقد أثبتَ حقيقة، وإذا أثبت حقيقة،

هَدَمَ الريبية المطلقة، لأنَّ القولَ بها لا بُدَّ له من حُكْمٍ ثابت، وأنَّى لهذا الحائرِ المتردِّدِ من ثباتٍ أو قرار، فهو قد أضاع نفسَهُ، فإنْ لم يَجِدْ نفسه، فكيف يُرشِدُ غيره؟

على أنَّ فريقاً من الجَهَلَةِ السطحيين، أو الأدعياءِ المكابرينَ، يَصْطنعُونَ هذه الريبيةَ اصطناعاً، ويُقَلِّدُونَ السفسطائية تقليداً لمجرد التَّفَلُّتَ من الحقيقة، والخروج على الفضيلةِ، ومِثْلُ هؤلاء لا يُقَامُ لهم وَزْنٌ في هذا المجال أكثر من الإشارة إليهم، والتنبيه إلى خطرهم، حيث يؤدي القولُ بالريبيةِ المطلقةِ إلى الفوضوية المطلقة فلا مَعْرِفةَ، ولا فضيلةَ، ولا خيرَ ولا شر، ولا عَدْلَ، ولا ظُلْمَ، وإنما هي شريعةُ الغَابِ، وطبيعةُ الذئاب، ونتيجة ذلك كله هَدْرٌ للعقلِ، وهَدْمٌ لكيانِ الإنسانية، ورجوعٌ بها إلى البهيميةِ وظُلُمَاتِ القرون الأولى، وتلك رَجْعِيَّةٌ خَطِرَةٌ قبيحة.

على أننا لو بادرنا إلى هذا الدَّعِيِّ الهائمِ على وَجْهِه في بَحْرِ التَّرَدُّدِ والحيرة والذي عدم ـ بزعمه ـ التمييزَ بين نافعٍ وضارٍّ، وطلبنا إليه أنْ يَلِجَ النارَ، لامتنعَ، إقراراً بحقيقةِ الإحراقِ، أو أنْ يَتَجَرَّعَ السُّمَّ الزُّعَافَ، لأحجمَ، إقراراً بحقيقة

الأذى. أو أنْ يتغذَّى بالقَذَرِ والنتنِ، لغضبَ إقراراً بالفرقِ بين الطيِّب والخبيثِ. وهكذا نجدَ أنَّ فِعْلَهُ يُكَذِّبُ قولَهُ، فهو متناقضٌ متهافتٌ، جاهلٌ مُتَرَدِّدٌ. ويجدرُ بالعاقلِ ألا يكونَ مُنقاداً لجاهلٍ، وبالبصيرِ ألا يكونَ فريسةً لحائرٍ مرتابٍ!

وبتبديدِ شُبْهَةِ الربيبةِ المطلقة، وما تَجُرُّ من آثارٍ سيئةٍ على الفردِ والمجتمع، وثبوت حقيقةِ الوجودِ، تَثْبُتُ لديكَ أيها القارئُ أنواعُ الموجوداتِ المادية: ما بين خفيفٍ وثقيل، وخَشِنٍ وأملسَ، وحارٍ وباردٍ، ورَطْبٍ ويابس، ومَرْئِيٍّ ومسموع، ومَذوقٍ ومَشْمُوم.

كما تثبت لديك الموجوداتُ المعنوية: ما بين معلومٍ ومجهول (ومنه تنشأُ المعرفة)، ونافعٍ وضارٍّ (ومنه تنشأُ الأخلاقُ[1]).

وهكذا تبتعدُ عن غائلة السفسطائية، وتُقِرُّ ـ مع العقلاء ـ بِسُلطانِ الموجوداتِ، وتأثيرِ المحسوساتِ، ولم تكذبِ الحِسَّ

---

(١) لا يعني بذلك بناء الأخلاق على المنفعة الشخصية القريبة، وإنما أردنا الإشارةَ إلى الأصل، لأنَّ أصلَ الأخلاق مبنيٌّ على ظُلْمٍ وعَدْلٍ، والظلمُ أذى، والأذى إيقاع الضرر.

القـاهِـرَ، والإدراك الباهر، وتنجو من بُؤْرَةِ التناقضِ المشين، ووَهْدَةِ الحيرةِ القاتلة، وظُلْمَةِ الجَهَالة الحالكة.

ولا شَكَّ أنَّ ذلك لا يحصلُ لك كاملاً، دونَ التفصيل في أنـواعِ هذه المـوجـودات، وتحـديدِ الاتجاه على ضوءِ ذلك التفصيلِ في حدودِ البحثِ الــذي عَيَّنَّـاهُ، وعلى المستـوى العقلي الذي عَنَيْنَاهُ.

السَّـــبَبيّة

منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراكِ، وإشراقِ أشعةِ عَقْلِه على الوجود؛ تساءلَ ـ ولا يزال ـ عن مَبْدَئِه ومُنْتَهاهُ، فهو يتساءل: من أين أتى؟ وإلى أين يصيرُ؟ وهو إذ ينصرفُ فِكْرُه إلى أنَّ ورودَهُ المباشر إلى هذا العالم إنما كان من رَحِم أُمِّه، أو مِنْ نُطفةِ أبيه، لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة، دونَ النظرِ إلى المبدأ الأول والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجعُ إليه جميعُ الأسباب.

ولهذا الدافعِ العميقِ المُمْتَزِجِ بالنفسِ البشرية، والذي وُلِدَ معها وما زال يُلازِمُهَا، كان الجوابُ على هذا السؤال شُغْلَ المُحَقِّقين الشاغل، فنشأت أحكامٌ مختلفة، ونظرياتٌ متباينة، وكان منهم مخطىءٌ ومُصيبٌ. غيرَ أننا إذا نظرنا إلى ما بينَ أيدينا من السماءِ والأرض، نرى أنَّ المطرَ ينهمرُ من سحابٍ، وأنَّ الثمرَ يحصلُ من شَجَرٍ، وأنَّ الشجر ينبتُ من الماءِ والترابِ، وأنَّ الماء ينشأ من عُنْصُرِي (الأوكسجين) و (الهيدروجين).

ولم يشاهد الإنسانُ منذ فتح عينيه على الوجودِ، أنَّ حادثاً حَدَثَ من غيرِ سببٍ، أوْ أنَّ شيئاً وُجِدَ من غيرِ مُوجِدٍ، حتى أضحى هذا المعنى بحكمِ الواقعِ القاهر، لا يَتَصَوَّرُ العقلُ خِلافَهُ، ولا يطمئنُ إلى غيره، ولا يأبى الإقرارَ به إلا عقلٌ مريض، شأن المعتوهينَ، أو عقلٌ قاصِرٌ، شأن الطفل الذي يكسرُ الإناءَ ثم يقول: إنه انكسرَ بنفسِه!

ولذلك وجدنا ذلك العربيَّ قد أدركَ هذه السببيَّةَ بفطرته النقيَّةِ، فنادى نِداءَهُ المشهور: «البعرةُ تدلُّ على البعيرِ، والأثرُ يدل على المسيرِ، ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، أفلا تَدُلُّ على الصانعِ الخبير»!!

لهذا الواقعِ الصريح، والإدراك القاهر، وجَرَيانِ الحوادثِ أبداً على هذا القانون، أضحى هذا المبدأُ مُسَلَّماً به في كتبِ الفلسفة، وسُمِّيَ بـ (مبدأ السببيَّة) وهو أولُ مبادىءِ العقلِ المديرة للمعرفة، لأنه أساسُ الأحكامِ العقلية، والمُحَاكَماتِ المنطقية. ولو التفتَّ إلى كلماتِكَ التي تُخاطِبُ بها الناسَ صباحَ مساء، والأحكامَ التي تنظم بها شؤونَ حياتِكَ، لوجدتها لا تَخْلُو في أيِّ مرحلةٍ من المراحلِ، من الاستناد إلى مبدأ السببيَّة.

إذن فقولُنا: (لا بُدَّ لِكُلِّ حادثٍ من مُحْدِثٍ) أمرٌ يقينيٌّ مُسَلَّمٌ به ولا يقبلُ العقلُ غيرَهُ، وبالتالي: مُحَالٌ على حادثٍ أنْ يحدثَ بذاتِه، وعلى شيءٍ أنْ يُوجَدَ بغيرِ مُوجِدٍ. وإليه الإشارةُ في القرآنِ الكريم: ﴿أم خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخالقونَ؟﴾ [الطور: ٣٥].

نقولُ بناء على هذه القاعدة: إنَّ عالَمنا هذا من أرضٍ وجبالٍ، وبحارٍ وأنهارٍ، وشجرٍ ودوابَ، وشموسٍ وأقمارٍ، لا بُدَّ له من مُحْدِثٍ، وإنَّ هذه الحوادثَ الفرعية الكثيرة مندفعةٌ عن أسبابٍ، وهذه الأسبابُ مندفعةٌ عن أسبابٍ أخرى أقلَّ من الأولى، ولا بُدَّ أنْ نصلَ بالنتيجةِ إلى سببٍ لجميعِ هذه المُسببات، ومُحْدِثٍ لجميعِ هذه الحادثات، لأننا كلما رَجعنا إلى الأصلِ الذي اندفعت عنه المسبباتُ، قَلَّت العواملُ الدافعة، حتى نصلَ أخيراً إلى مُسبِّبٍ واحد. كَنَظرِكَ إلى أغصانِ الشجرةِ المتعددةِ المتشابكة، فكلما ذهبتَ تبحثُ عن أسبابها، ذهبتَ إلى قليلٍ من كثير، حتى تنتهي إلى ساقٍ واحدةٍ، وإنك تجدُ هذه الحقيقةَ في أمثلةٍ كثيرة، هيَ من الظُّهورِ بمكانٍ لا تحتاجُ معه إلى الوقوفِ الطويلِ وضَرْبِ الأمثال.

إذن فإنكارُ مُحْدِثٍ للحوادثِ ومُوجِدٍ للوجودِ، تناقضٌ مع العقلِ، وإقامةٌ على الخطأ، ولعلَّ هذا الإلزامَ المنطقي الذي لا مناصَ منه، سَمَّى (ابنُ سينا) ذلك الموجِدَ الذي لا مناصَ من الإقرارِ به، بالواجبِ الوجودِ، حفاظاً على حرمة العقلِ من أنْ يُوصَمَ بالتخليطِ والتناقضِ، أو البلاهةِ والتَّبَلُّدِ، إذ يستحيلُ أنْ ينبثقَ الوجودُ من العدم.

هذا، وإنَّ قِدَمَ المبدأ، أو قول كثيرينَ به، أو ظهورَهُ بمظهرِ البديهية، لا يقضي عليه، ولا يُخْرِجُه من الحقِّ إلى الباطل، ما دامَ العقلُ يمليه، والواقعُ يُؤَيِّدُه، إلّا إذا كان الداعي إلى الإنكار استكباراً عن كُلِّ قديمٍ، أو عقوقاً للمنطقِ السليمِ، أو جرياً مع كُلِّ هوى سقيم، شأنَ الحَمْقَى والمرضى والمغرورين!

وقد يقولُ قائلٌ: إنَّ هذا المُحْدِث لجميعِ الحوادثِ هو الطبيعةُ، وسيأتي الكلامُ على الطبيعة، أو يقول: إذا أقررنا بوجودِ الخالقِ، فَمَنِ الذي أوجدَ الخالقَ؟ وسيأتي تفصيلُ ذلك.

والذي نريدُ أنْ نَخْلُصَ إليه الآن واضحاً مجزوماً به: لا بُدَّ لِكُلِّ حادثٍ من مُحْدِثٍ، إذن فلا بُدَّ لهذا العالم من خالق.

ونسمي هذا المبدأ: القاعدة الأولى.

هنا قد يُثيرُ بعضُ النُّقَّادِ قضيةَ قِدَمِ العالَمِ وحُدُوثِه فيقول: إنَّ هذه القاعدةَ تستقيمُ إذا سَلَّمْنَا بحدوثِ العالم ولم نَقُلْ بِقِدَمِه.

ونقول: إنَّ البرهانَ مُلْزِمٌ بالقولِ بحدوثِ العالَم ونَفْيِ قِدَمِه، فقد قال الإمامُ الغزالي، بناءً على ملاحظةِ الحركة والسكون: إنَّ دورةً من الفلكِ إما أن تكونَ شَفْعاً أو وتراً، فإنْ كانت شفعاً فقد أَتَمَّتْ عَدَداً فردياً، وإنْ كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجياً، إذن فالعددُ السابق على كلا الحالين محدودٌ، ولما كان محدوداً فهو حادثٌ قطعاً، ولو استمر الناقدُ فقال: إنَّ أصلَ العالم (هيولاه) قديمٌ، والحركة طارئة، قلنا له: من أينَ طرأت الحركةُ؟ فهو إذن إقرارٌ منه صريحٌ بوجودِ مُرَجِّحٍ آخرَ أثَّرَ على العالَم بإيجادِ الحركة، بل هو استعجالٌ فاصلٌ للإقرار بوجودِ خالقٍ للعالم. فالناقدُ بين أمرين: إما أنْ يرجعَ إلى قولنا بالحدوثِ، فيعترف بالخالقِ، أو أنْ يُقِرَّ بوجودِ المرجِّحِ وهو اعترافٌ بالخالق.

وكما لاحظ العلماءُ أمر الحركة والسكون، لاحظوا أمر

الحرارة والبرودة، فقرروا أنه لو كان العالم قديماً وقد مرت عليه ملايين السنين، لانطفأت الحرارةُ، وانتهت الحركة، وعَمَّ الظلام وانتهت الحياة! إذن فَنَقْدُ الناقدِ واهٍ لم يَصِلْ إلى القرار، ولم يَثْبُتْ للنقد. والقولُ بِقِدَمِ العالَمِ باطلٌ لا يسنده برهانٌ، وهكذا تنهارُ (المادية الجَدَلية Dialectique) التي تقولُ بقِدَم العالَم، هَرَباً من الإقرارِ بوجودِ خالقٍ للعالَم، وتَفَلُّتاً من البرهانِ المُلْزِمِ، والدليلِ القطعي[1].

وقد تستغربُ قولي بانهيارها بهذه السرعة، ولكني أقول: إنَّ عِقْداً في نظامٍ لو بلغ ألفَ حبة، لانفرطَ كله بحل العقدة الأولى. وإنْ لم تُرِدْ ذلك فاحذفْ من الماديةِ الجدلية قولَها بِقِدَمِ العالَمِ، حيثُ ثبتَ أنَّ ذلك باطلٌ، فأوَّلُ حُكْمٍ تَهْدمُه من أحكامها الأساسية إلحادها في الخالق، وعند الإقرارِ بخالق الوجودِ تنشأُ أحكامٌ أخرى، تهدم أحكامها الفرعية دونَ أنْ يكونَ النقدُ موجَّهاً إلى الفروعِ مباشرة، لأنَّ ظهورَ الباطلِ في أصولِ

---

(١) نقول للملحد: لماذا تجيز لنفسك افتراض قِدَم العالم، وترفض قِدَم الخالق. مع العلم أن العالم ثبت أنه حادث وغير قديم، وأن الخالق ثبت أنه غير حادث وذلك يعني أنه قديم..

النظرياتِ لا بُدَّ أنْ يهدمَ الأباطيلَ الناشئةَ عنه في جميعِ الفروع بصورةٍ عفوية كالبناء الشامخِ يَتداعى جملةً واحدةً بنقضِ أساسِهِ، ولقد صَوَّرتِ الآيةُ الكريمة التالية هذا المعنى بتلكَ الصورةِ المحسوسةِ الرائعة:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوىً من اللهِ ورضوان خيرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بنيانَهُ على شَفَا جُرفٍ هَارٍ فانهارَ به في نارِ جهنمَ واللهُ لا يَهْدِي القومَ الظالمين﴾ [التوبة: ١٠٩].

إذن فهذا العالَمُ حادثٌ غير قديم قطعاً، وما قالَ بِقِدَمِهِ مَنْ قال إلا فَرْضاً للرأي بغير برهانٍ، ومجانبةً للحَقِّ دون تبيان، ولما كان حادثاً فلا بد له من مُحْدِثٍ، كما ذكرنا في القاعدة الأولى.

واليوم تأتي هذه الطبعة بعد حوالي عشرين سنة من تأليف هذا الكتاب، حيث كانت الشيوعية لا تزالُ قائمةً معلنةً في كثيرٍ من الدول وعلى رأسها (الاتحاد السوفياتي) وكان زعماؤها ينادون بالإلحاد ويؤكدون بفلسفتهم المادية أنهم أصحابُ الحل الوحيد للحياة الاقتصادية في العالم، ويعيبون على غيرهم النظم الاقتصادية الأُخرى، حتى اغْتَرَّ بهم كثيرٌ من الناس، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا بغير علمٍ ولا هُدى ولا كتابٍ منير.

وحين يقرأُ القارىء ما ذكرنا في هذا الفصل من فسادِ الأساس الذي بُنيتْ عليه الشيوعية ولزومِ انهيارِ ذلك البناء، ولو بَدَا بَرَّاقاً شامخاً في مرحلةٍ من الزمان، ربما يستغربُ أو لا يُسَلِّمُ لنا بسهولة، ولكنَّ القارىءَ اليومَ يرى بعينيهِ صِدْقَ ما ذكرنا وحقيقةَ ما قدَّرنا بحمدِ اللهِ، من انهيار الشيوعية من جذورها وفي أقوى معاقِلها، حين تَقَوَّضَ بنيانُها، وتَهدَّمتْ أركانها وكَفَرَ أصحابها بها، ولعنوا مؤسسيها، وتبرؤوا منها، حتى إنَّ بعض البلاد التي كانت تدينُ بها جَبْراً وإكراهاً، أبت بعد التحرر منها، أنْ يُرَخَّصَ لحزبٍ شيوعي فيها بينما سمحت لجميع الأحزاب من مختلف الاتجاهات تأكيداً لكراهتها لتلك المبادىء بعد أنْ لقيت من حَيْفها وظلمها الأهوال والنكال.

ومن هنا تجد الفرق كبيراً بين مَنْ يُنعم النظر في الأُمور بتجردٍ وتدقيق في أسسِ النظريات ويدرك الحقيقة، وبين مَنْ ينظر نظراً سطحياً أو عاطفياً، أو يَغْتَرُّ باعتقادِ الكَثْرةِ فيسير وراءهم دون وَعْيٍ ولا تَدَبُّرٍ ولا تمحيص، أو يسير مع الهوى والعاطفة، دون العقل والبصيرة، فيقع في مهاوي الخطأ والضلال، وهذا هو الواقع اليوم ينطقُ بما نقول.

الخالِق العظيم

بعـد أنْ أقررنا بوجودِ خالقٍ للكون، يَسُوقنا التحقيقُ إلى البحث عن صِفاتِه، ذلك أنَّ المعرفةَ مرتبطةٌ بإدراكِ الصفات، وأنَّ الصفاتِ منها ما هو أساسيٌّ يحدِّدُ ويعرِّفُ ويقرر الحكم، ومنها ما هو كماليٌّ يؤدي إلى ازديادِ المعرفةِ وغزارةِ العلم، وأنَّ المعـرفـةَ تكـون إحـاطـة إذا ألَمَّتْ بجيمـعِ صفـاتِ الكائنِ وخصائصه، وتكونُ أدنى من ذلك إذا قَصَّرَتْ عن ذلك الإلمامِ بمقدارِ قُصورِها عن إدراكِ تلك الصفات والخصائص.

فما هي الصِفةُ التي يمكننا أنْ نعرفَ بها الخالق؟

وما هي حدودُ معرفته؟

وهل يَصحُّ السؤالُ عن مُوجِدٍ للخالق؟

١ـ هل من صفة نُمَيِّزُ بها الخالق؟

لقد أقررنا بأنَّ هذا العالم حادثٌ، إذن فهذه الكائناتُ التي نُدْرِكُهَـا في العالم الخارجي حادثةٌ، ومعنى ذلك أنها عُرْضَةٌ

للتغير والأفولِ ، وأنَّ صفاتها الطارئة تُمْلَى عليها إملاءً وتَتَحَكَّمُ بها قَهْراً وإلزاماً، ولم نَجِدْ بين الحوادثِ حادثاً يستطيعُ دَفْعَ ذلك أو التَّجَرُّدَ منه، ولذلك وصفنا الحوادثَ بالعجزِ والنقص.

وإذا أردنا أنْ نختصرَ طريقَ الاستقراء، عمدنا إلى الإنسان الـذي هو أكمـل هذه الكـائناتِ، فإننا نجده مقهوراً لأسبابٍ كثيرة، فهو يُولَدُ، ثم يُعاني آلامَ الحياةِ، ثم يموتُ، يجري عليه كُلُّ ذلك بغير إرادته واختياره.

إذن فهذا الكائنُ الذي سَمَا على جميعِ تلك الكائناتِ، بما أُوتِيَ من عقلٍ وإدراكٍ واقتدار، محصورٌ في حدود الحدوث والعجزِ والافتقارِ، مَدِينٌ إلى غيرِه في وجوده، مُفْتَقِرٌ إلى مَنْ يَسُدُّ عَجْزَهُ، ويصلح شأنه.

ولو سَأَلْتَهُ:

هل خُلِقَ من غيرِ سببٍ؟ لأبى عليكَ المحالَ وأنكره.

ولو سألته:

أَهُوَ الذي خَلَقَ الكائنات؟ لاستنكر أنْ يقول ما ليسَ لَهُ بِحَق!

وإنك تجدُ هذا التحقيقَ واضحاً في القرآنِ الكريم في عِدَّةِ

صُوَرٍ، منهـا ما وردَ بشكلِ حُجَّةٍ منطقية، ومنها ما استندَ إلى الواقع في آياته الكونية، فتجده حُجَّةً واضحة ملزمة، كما في الآيات الكريمة التالية:

﴿أَمْ خُلِقُـوا من غير شيءٍ أَمْ هُمُ الخَـالِقُـونَ. أَمْ خَلَقُـوا السمواتِ والأرضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ. أَمْ عندهم خزائنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُون؟﴾ [الطور: ٣٥ـ٣٧].

وتَجِدُه في صورةٍ أخرى يُظْهِرُ عَجْزَ الإنسانِ عن التَّصَرُّفِ في شؤونِ الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذي حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه أَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ إذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِـي ويُميتُ قال أنا أُحْيِـي وأُميتُ قال إبراهيمُ فإنَّ الله يأتي بالشمسِ من المشرقِ فَأْتِ بها من المغربِ فَبُهِتَ الذي كفرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفي هذا بيانٌ جَلِيٌّ لعجزِ الإنسانِ، وإجبارٌ قاهرٌ يقودُه إلى الإذعانِ، ولكي يبرز هذا المعنى ـ وهو قصورُ الإنسان عن إدارةِ الفلك وعجزه عن تدبيرِ أمرِ السماءِ والأرضِ ـ يناديه الكتابُ بآياتٍ أخرى:

﴿قُـلْ أرأيتم إنْ جعـلَ اللهُ عليكم الليلَ سرمداً إلى يومِ القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون؟ قُلْ أرأيتم إنْ

جَعَلَ اللهُ عليكم النهارَ سَرْمداً إلى يومِ القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تَسْكُنونَ فيه أفَلا تُبْصِرُون؟﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

ولقد التفتَ الفِكْرُ إلى هذا المعنى، وتَعَلَّقَ النظرُ بخالقٍ للكون - غير هذا الإنسان لِزَاماً - حتى أصبحَ ذلك بمثابةِ البديهية. وانظُرْ إلى الجوابِ العفوي الذي ينطلقُ من فَمِ الإنسانِ دونَ تردد إذا ما سُئِلَ عن هذهِ الحقيقة: ﴿ولئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ من السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ من بعد موتها ليقولُنَّ الله﴾ [العنكبوت: ٦٣].

﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرض وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ ليقولُنَّ الله﴾ [العنكبوت: ٦١]، والمقصود من الجوابِ «ليقولن الله» تعلق الإنسان بخالقٍ آخر غيره، لأنَّ هذه الموجودات خارجةً عن نطاقِ قُدْرَةِ الإنسان.

ولما أضحت هذه الحقيقةُ في هذه الدرجةِ من البداهةِ والوضوح، أشارت إلى ذلك الآيةُ القرآنية: ﴿قالت رُسُلُهم أفي الله شَكٌّ؟ فاطر السمواتِ والأرض﴾ [إبراهيم: ١٠].

إذن فالخالقُ الذي نُريدُ معرفتَهُ لا بُدَّ أنْ يكونَ فوقَ الإنسان

علماً وقدرة، وإذا كان مُحْدِثاً لجميعِ الحوادثِ فهل يبقى في حدودها؟

الـذي نجـزمُ به أنـه غيرُ حادثٍ، ولا تَعْتَريه صفاتُ الحـوادثِ، لأنـه لو كان حادثـاً لاعتراهُ الفناءُ والعَدَمُ، وتكون النتيجة: أنَّ العَدَمَ أصلٌ للوجود، وذلك مستحيل.

قال بعضهم: إنَّ التسلسلَ باطلٌ[1] على زَعْمِ أنَّ مُحْدِثَ الحوادثِ حادثٌ أيضاً، ولا بُدَّ له من مُحْدِثٍ، وتلك سلسلةٌ لا تنتهي. فَتَوقَّفُوا عند ذلك الحَدِّ من النظرِ، ولم يَلْتَفِتُوا إلى أنه يستحيلُ أنْ يكـون العَـدَمُ أصـلاً للوجود، وبهذا يتبينُ بُطلانُ قولِ مَنْ زَعَم أن مُحْدِثَ الحوادثِ حادثٌ.

ونحن إنما نذهبُ إلى هذا الحَدِّ من العُمْقِ لاستئصالِ آخرِ بذرةٍ من بُذورِ الشـكِّ إزاء هذا المـوضـوع، فلقد كانت هذه النقـطةُ من البحثِ - وهي تقـديرُ أنَّ مُحْـدِثَ الحـوادثِ ليس بحـادثٍ - هي العقـدةُ الأخيرةُ التي يقفُ عنـدهـا المـرتابُ، ويتبـاهى بهـا الملحدون، فيتهمونَ المحققينَ أنهم مضطرونَ لافتراض أنَّ مُحْدِثَ الحوادثِ ليس بحادثٍ، في الوقتِ الذي

(١) يقصد بذلك مبدأ السببية وانتهاءه إلى الخالق.

ترى فيه أَنَّ الأمـرَ ليس افتراضاً، وإنما هو برهانٌ قاهرٌ وحُكْمٌ قاطع، والخطأ يَلزمُهم حين افترضوا فيه الحدوث، لأن الحدوث مآله العدم.

ومن الفلاسفةِ مَنْ لم يذهبْ إلى هذا الحَدِّ من العمق، بَلْ جزمَ بأنَّ هذه السلسلةَ لا بُدَّ أنْ تنتهي عند حَدٍّ، حينما قَرَّرَ أنه لا بُدَّ لهـذا الكـونِ من خالقٍ، فلقـد قال أرسـطو: (إنَّ هذه السلسلةَ من الأسبابِ لا بد أنْ تنتهي إلى سببٍ وحيدٍ أوَّلٍ هو أساسُهَا، لأنَّ العقلَ لا يقبلُ أنْ تستمرَّ هذه السلسلةُ إلى ما لا نهاية، وهذا السببُ الذي تنتهي عنده السلسلةُ هو اللهُ تعالى)

وقد قالَ بهذا القولِ فريقٌ من الفلاسفةِ وعلماءِ الكلام، وأضافوا إلى ذلك أن هذا التسلسلَ إما أنْ يكونَ مستقيماً ممتداً إلى (اللانهاية)، فَيُفْضِي إلى البرهانِ الذي ذَكَرَهُ (أرسطو) أو أنْ يكون مستديراً فيفضي في النتيجةِ إلى أنْ يكونَ الحادثُ عينَ المحـدث (بـالتقـاء طرفي الـدائـرة) وذلك مستحيلٌ، فتكون النتيجة أنَّ التسلسلَ في شكله المستقيم والمستدير لا بد أنْ يقودَ إلى القولِ بأنَّ الخالقَ غيرُ حادثٍ وبريء من الحدوث، وهذه الصورةُ الأخيرة تُعْرَفُ (بمسألة الدَّوْرِ) عند علماءِ الكلام.

غير أن هذا الجَزْمَ قد يماري فيه الملحدون، ويجادلُ فيه المرتابون، فوجب ملاحظة المعنى الذي أوردناهُ وهو أنَّ افتراضَ الحُدُوثِ في خالقِ الموجوداتِ يجعله قابلاً للزوالِ والعَدَمِ، ومعناهُ أنَّ العدم أصلٌ للوجود، وهذا مستحيل.

والحق أنَّ الخطأَ نشأ عند أولئك من المزج بين نقطتين: الأولى: هيَ الإقرارُ بمُوجِدِ الموجوداتِ (وهو إلزامي) والثانية: هي صِفَةُ الموجِدِ، أهُوَ حادثٌ أم بريء من الحدوث؟ فحينما يبحثون في النقطة الثانية، (ويترددون في براءته من الحدوث) ينكرون النقطةَ الأولى التي قام عليها الدليلُ القطعي، وهي الإقرارُ بخالقِ الموجوداتِ. أي: أنَّ التردُّدَ في معرفةِ صفَتِه ينفي عندهم وجوده وهذا هو الخطأ، لأنك قد ترى النُّورَ ولا ترى مَصْدَرَهُ، فهل تُنْكِرُ المصدرَ؟

وقد تَرى ظِلَّ الرَّجُلِ ولا ترى الرَّجُلَ، فهل تنكر وجودَ الرجل؟

الحقُّ أنَّ هذا النوعَ من الإنكارِ أقرب إلى النَّزَقِ الصبيانيِّ منه إلى التحقيقِ الفلسفي. على أننا لم نَدَعْ مجالاً للشكِّ حتى في هذه النقطةِ البديهيةِ حينما قَرَّرْنَا أنَّ مُحْدِثَ الحوادثِ غيرُ

حادثٍ، لأنه لو كان حادثاً لاعتراه العَدَمُ والفناء، ويستحيلُ أنْ يكونَ العَدَمُ أصلاً للوجود[1].

وإذا ثبت لدينا أنَّ خالقَ الكونِ غيرُ حادثٍ قطعاً، ويرتفعُ بصِفاتِه عن صِفاتِ الحوادثِ من العجزِ والنقص والأُفُولِ، وأنَّ قُدْرتَـهُ قد أحـاطَتْ بالوجودِ خَلْقاً وتَصريفاً، فإنَّ ذلك يُثيرُ في أنفسنا قضيةَ كمالِه، أَفَيُمْكِنُ القولُ: إنه كاملٌ مُطْلَقٌ، أم إنه في حدودِ الكمالِ النسبي؟

إذا قلنا بكمالِه النسبي، كان المعنى أنه لا بُدَّ أنْ ينتهي كمالُه عند حَدٍّ من العلمِ والقدرةِ، والحدودُ قطعاً من صِفاتِ الحـوادثِ، من مبـدأ ونهاية، وصِغَرٍ وكِبَرٍ، وقلةٍ وكَثْرَةٍ، فكُلُّ حادثٍ محدود، وكُلُّ محدود حادث، ولا يمكنُ أنْ يتبرأ كائنٌ من الحـدوثِ ما لم يتبـرأْ من أيِّ نوعٍ من أنـواع التحـديدِ، إذن فالخـالقُ الـذي يَتَّصِفُ بالكمـالِ النسبي تصوراً، حادثٌ من الحوادثِ، والخالقُ الذي بَرِيءَ من الحدوثِ لا يمكنُ إلا أنْ يكونَ كاملاً كمالاً مطلقاً، لا يلحقه عَجْزٌ في علم ولا قدرة، ولا

---

(١) ونقصد بالأصل «أصلا من القدرة» لا أصل الفرع والانقسام، لأن ذلك من صفات الحوادث.

يُوصَفُ بنسبيةٍ ولا تحديد، وقد قررنا من قَبْلُ أنَّ خالقَ الوجودِ غير حادثٍ قطعاً، إذنْ: فالخالقُ الأولُ كاملٌ كمالاً مطلقاً، ونسمي هذا المبدأ: القاعدة الثانية.

٢ـ ما هيَ حدودُ معرفةِ الخالق؟

يقضي المنطقُ أنَّ الصغيرَ لا يستوعبُ الكبيرَ، وأنَّ الناقصَ لا يُحِيطُ بالكاملِ، وقد عرفنا أنَّ الإنسانَ لا يتمتع بأكثر من الكمالِ النسبي، وأنَّ الخالقَ يَتَّصِفُ بالكمالِ المطلق، ومعنى ذلك أنَّ الكمالَ النسبي لا يمكنْ أنْ يحيطَ بالكمالِ المُطْلَقِ، كما لا يُحيطُ العَدَدُ المحدودُ باللانهاية، أي: أن الإنسانَ لا يمكن أنْ يُحيطَ بالخالقِ حين البحثِ في معرفته، أو أنْ يُدْرِكَهُ إدراكَهُ للمحسوساتِ التي بين يديه. ويجبُ أن لا نغفلَ عن القولِ أنَّ عَدَمَ الإحاطةِ لا يقتضي عَدَمَ المعرفة، فإنَّ طفلاً صغيراً يمكن أنْ يعرفَ رجلاً كبيراً دون أنْ يُحيطَ بجميعِ صفاته، فالطفلُ عَرَفَهُ ولكنه لم يُحِطْ به، وتجد هذا المعنى واضحاً في نداءِ الصدِّيقِ الأولِ حول معرفةِ مُبْدِع الموجوداتِ، إذْ عرفه ولم يُحِطْ به فقال: «العَجْزُ عن درْكِ الإدراك إدراكٌ».

كما تجد ذلك مُصَوَّراً تصويراً حِسِّياً فيما يُرْوى عن رجلٍ

مُرْتاب مَرَّ برجلٍ مؤمنٍ على ساحلِ البحر، فدعاه إلى الإيمان، فأبى إلا أنْ يرى الله جَهْرةً، فانتحى المؤمنُ جانباً وحَفَرَ حفرةً صغيرة وأخذ يَصُبُّ من ماءِ البحر والماءُ يطفحُ من جوانبها، واستمر على ذلك، حتى عَجِبَ منه صاحبُه، فأقبلَ عليه قائلاً: ماذا تفعلُ؟ قال: أريدُ أنْ أنقلَ البحرَ إلى هذه الحفرةِ! قال: وهل يفعلُ ذلك عاقلٌ؟ وهل تستوعبُ هذه الحفرةُ الصغيرةُ مياه البحرِ الكبير؟ قال المؤمنُ: وهل يستوعبُ هذا الإنسانُ الصغيرُ الخالقَ الكبيرَ؟!

وإنك لَتَجِدُ تحديدَ هذا النوعِ من المعرفةِ في آياتِ القرآنِ الكريم:

﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدْرِكُ الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. لأنَّ إدراكَ الإحاطةِ من خصائصِ الأكبرِ بالنسبة إلى الأصغر، وهو مفقودٌ في الأصغرِ بالنسبة إلى الأكبر.

﴿وإذْ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرةً، فأخَذَتْكُمُ الصاعقةُ وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٥٥]. لاستحالةِ اشتمالِ العينِ عليه، لأنه ليسَ من الحوادثِ المحسوسةِ، فينتقل بطريقِ الحس.

﴿قال ربِّ أَرِني أَنْظُرْ إليكَ، قال لَنْ تَراني ولكن انْظُرْ إلى الجبل، فإن استقرَّ مكانَهُ فسوفَ تراني، فلما تَجَلَّى رَبُّه للجبل جَعَلَه دَكّاً وخَرَّ موسى صَعِقاً﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخالقَ لم يحجبْ نفسَهُ ضَنّاً على المخلوقِ، بل إنَّ نقصَ المخلوقِ هو الذي حَجَبَهُ عن الرؤية.

﴿ليسَ كَمِثْلِه شيءٌ وهو السميعُ البصير﴾ [الشورى: ١١]. وما دام لا يماثلُ الأشياءَ ولا تُماثِلُه فَلَنْ يُدْرَكَ إدراكَ الأشياء.

إذن فالذي نَخْلُصُ إليه أنَّ المُبْدِعَ الأولَ لا يُمْكِنُ أنْ نُحِيطَ به حينَ معرفته، ولا أنْ نُدْرِكَهُ إدراكَ المحسوسات، فهو يُعْرَفُ معرفةً، ولا يُحَاطُ به إحاطةً، ونسمي هذا المبدأ: القاعدة الثالثة.

٣- هل يَصحُّ السؤالُ عن خالقٍ للخالقِ الأول؟

ستجد أنَّ السؤالَ ـ أصلاً ـ لا يصحُّ لِمَا يشتملُ عليه من تناقضٍ ذاتي، على الرغم من كونِ هذا السؤال أول ما يَلْقَاكَ به المرتابُ، وآخر ما يستندُ إليه في المكوثِ على الشَّكِّ، ونستطيعُ أنْ نقولَ: إنَّ هذه الشبهة التي يقيمُ في ظُلماتها

الكثيرون، هي التي رَدَّتْ كثيراً من النـاسِ اليومَ عن قبـولِ الحَقِّ، وهي نتيجـةٌ سيئـةٌ لامتدادِ الفلسفةِ إلى ما وراء حُدودِ أهلها، حتى بلغتْ عقولُ العامةِ من المُتَطَفِّلِينَ على الفلسفةِ، أو أدْعياءِ المنطقِ، فأصبحوا يهرفونَ بما لا يعرفون، وهم لقصور بَاعِهم في هذا المضمـارِ، لا يستـطيعـونَ تمحيصَ الحق من البـاطـل، ولو أخلصوا في ذلك، لعدمِ الاستعدادِ، كالرجلِ الذي لم يدرس الهندسةَ والحسابَ، يحاولُ أن يُبَرْهِنَ لكَ على صِحَّةِ نظرية (فيثاغورس) مثلاً!

وإليكَ البيان الذي يهتكُ أستار هذه الشبهة:

ألـزمتنـا القاعدةُ الثانية بالإقرار بكمالِ الخالق المطلق؛ والكـاملُ المطلَقُ لا يمكن أنْ يحتاجَ إلى غيره، لأَنَّ احتياجَهُ يطعنُ في كمـالِـه، وقـد تَقَرَّرَ لدينا بما لا يقبلُ الشكَّ أنه غيرُ حادثٍ، وإذا كانَ غيرَ حادثٍ، فكيف يُسْأَلُ عن مُحْدِثٍ له؟

وقـولنـا هنـا، بعـد إقـرارنـا بكمالِه: أين مُوجِدُ الكاملِ المطلق؟ تَنَـاقُضُ بَيِّنٌ، وخطأٌ ذريعٌ تشتملُ عليه الجملة في طرفيها، فأولها عَجْزٌ وافتقار: (أينَ مُوجِدُه؟). وآخرها (كمال مطلق) لا يتطرقُ إليه العجزُ والافتقار! إذن فالكاملُ المطلق لا

يفتقرُ بحكم كمالِه إلى سببٍ يحدثه، وإلّا كنا مضطرينَ إلى نقضِ كمالِه، وكمالُه أمرٌ ثابتٌ عندنا مُقَرَّرٌ،واذكر (القاعدة الثالثة).

ولَعَلَّ بعضَ السطحيين يَظُنُّ أنَّ هذه المفاجأةَ بهذا السؤالِ غريبةٌ على عقولِ المؤمنين بالخالق، والحق أنَّ السؤالَ ليس مفاجئاً، فقد أشار إليه الرسولُ صلى الله عليه وسلم في الحديث: «إنكم تُسْأَلُونَ بعدي عن كُلِّ شيءٍ، حتى يقولَ القائلُ: هذا اللهُ خَلَقَ كُلَّ شيءٍ، فَمَنْ ذَا خَلَقَهُ؟».

والتورُّطُ في هذا الخطأ راجعٌ إلى علةٍ نفسية، ذلك أنَّ شِدَّةَ سيطرةِ القاعدة الأولى الخاصةِ بالحوادث (لا بُدَّ لكلِّ حادثٍ من مُحْدِثٍ) والتي تَبْرُزُ لأعيننا في مئاتِ الحوادثِ كُلَّ يومٍ، جعلتنا نطبقها سهواً - لا على الأشياء فحسب - بل حتى على الذي ﴿ليسَ كَمِثْلِه شيءٌ﴾ غَفْلةً منا، وانصياعاً للتصور الغالب، شأنَ رَجُلٍ يشتغلُ طوالَ عمره بكيمياء النحاس، فَعَرَضَ له الذهبُ فجأة، فراح يطبقُ عليه قوانينَ النحاس، أَفَتُرَاهُ يُصيب، أمْ يُخطىء؟ لا جَرَمَ أنه مخطىءٌ وأنَّ خطأه نشأ من انهماكِه الدائم في قانونٍ معين، وغفلته عن التفريق بين القوانين حينما اختلفتْ

مجالاتُ التطبيق. ولقد عرفنا أنَّ خالقَ الحوادثِ لا يَتَّصِفُ بالحدوثِ قطعاً، فكيف نطبقُ عليه قانونَ الحوادث؟!

ذكروا أنَّ رجلاً جاء إلى الإمام أبي حنيفة فقال: إذا أقررنا بالخالقِ فَمَنْ ذَا خَلَقَهُ؟ قال: عدَّ من الواحدِ صعوداً، ففعل الرجل، قال: عدَّ قبلَ الواحدِ، قال: ليسَ قَبْلَ الواحدِ شيءٌ.

قال: كذلك ليس قبلَ الواحد شيء!

والحقيقةُ الكامنةُ في هذا المثال، هي أنَّ الأعدادَ لها محدثات هي الأرقام، وجميعها متشابهةٌ من حيث الحدوث، وأنَّ تلك الأرقامَ أسبابٌ ضرورية لها، ولا يمتازُ عنها إلاّ الواحد حيث لا يوجَدُ له أرقامٌ تؤلفه، وغنيٌّ عن البيانِ أنَّ الأرقامَ السلبية ليست غرضنا، لأنَّ السلب عَدَمٌ.

والخلاصةُ أنَّ الخالقَ ليس بحادثٍ، فنطبق عليه قانونَ الحوادثِ في السؤال عن خالقٍ له، فذلك غيرُ سائغٍ، وأنه كاملٌ مطلق، والكامل المطلق لا يحتاج إلى غيره، وبذلك يَنْهدمُ آخِرُ صَرْحٍ من صُروحِ الشك فنقول: الكاملُ المطلق لا يمكنْ أنْ يفتقرَ إلى الموجِد، ونسمي هذا المبدأ: القاعدة الرابعة.

وبناءً على ما تَقَدَّمَ نستطيعُ ترتيبَ القواعد الأربع المتقدمة

حَسْبَ التسلسل المنطقي التالي:

(١) لا بُدَّ لِكُلِّ حادثٍ من مُحْدِثٍ.

إذن فهذا العالَمُ لا بُدَّ له مِنْ خَالق: فإنكارُه ضلالٌ وخطأ.

(٢) إنَّ هذا الخالقَ كاملٌ مُطْلَقٌ: فنسبةُ العجزِ والافتقارِ إليه ضلالٌ وخطأ.

(٣) إنَّ الكاملَ المُطْلَقَ لا يفتقرُ إلى الموجِدِ: فالسؤالُ عن خالقِ الخالقِ ضلالٌ وخطأ.

(٤) يُعْرَفُ الكاملُ المطلق ولا يُحَاطُ به: فَتَوَقُّفُ الإقرارِ به على الرؤيةِ أو الإحاطةِ، ضَلالٌ وخطأ.

الطبيعَـــة

بعـدما تَبَيَّنَ لكَ، بما لا يقبلُ الشكَّ وجودُ الخالقِ، وأنه الكـاملُ المُطْلَقُ، وأنَّ السؤالَ عن خالقِ الكمالِ المطلق لا يَصِحُّ، وتبددت أمامكَ تلك الشبهاتُ، بقيت شبهةٌ من شبهاتِ العصر، وضلالةٌ أخرى من ضلالاتِه، وهي ـ كما سيظهرُ لك ـ مُصْطَنَعةٌ كما تُصْطَنَعُ الأصنامُ، مخيِّمةٌ على الأحلامِ كما تُخَيِّمُ الأوهام، ولكنها بكل أسفٍ مع اصطناعها هذا، وعدم استنادِها إلى أسـاس، نجـدهـا مسيطرةً على عقولِ كثيرٍ ممن يَدَّعُونَ الثقافةَ والمعرفة، وقد انطلت عليهم دون أن يُكلِّفُوا أنفسهم عناءَ البحثِ والتمحيصِ، تلك الشبهـةِ هي الـطبيعـة، إلهُ العصرِ المزعوم. وإنك حينما تُبادِرُ أحدَ الطبيعيين بالقولِ:

مَنْ خلق السموات والأرض؟ يقول لك: الطبيعة.

مَنْ خلق النبات والحيوان؟ يقول لك: الطبيعة.

مَنْ خلق الإنسانَ؟ يقول لك: الطبيعة.

مَنْ يُدَبِّرُ جميعَ هذه الأمورِ الفلكية، والحيوية، والغريزية وكُلٌّ بحسابٍ دقيق، ونظامٍ لا يَحِيد؟ فسيقول لك الطبيعة!

وهو يَتَذَرَّعُ لكَ بهذا السبب، لأنه لا يستطيعُ أنْ يقول لك: إن الأشياء تَحْدُثُ بذاتها، أو مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِها، وينكرُ قانونَ السببيةْ، فَيوصَفُ بالغباوة والبلاهة، فهو أصابَ حين أقرَّ بالسبب، وأخطأ حين جَهِلَ السبب.

وليس شأننا حين البحث في هذا الأمر أنْ نكتفي بالتسفيه والتشنيع، ولكننا نناقشُ الأمرَ من جميعِ الوجوه، فما كانَ مِنْ حَقٍّ أقررناه، وما كان من باطلٍ فَنَّدْنَاهُ، والعاقلُ الذي يصيخُ إلى المنطق، والجاهلُ الذي يَتَّبِعُ هواه، ويقيمُ على الباطلِ ولو تَبَيَّنَ له الحق.

فما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما هي حقيقية تأثيرها؟

الطبيعة في اللغة: السَّجِيَّةُ والخُلُقُ، غيرَ أنَّ للطبيعة اليومَ في عقولِ الناس ـ حسب تفاوتهم ـ مفهومين:

المفهوم الأول: أنها عبارةٌ عن الأشياءِ بذاتها، فالجمادُ والنبات والحيوان، كُلُّ هذه الكائنات هي الطبيعة؛ وهو مفهومٌ

غير دقيق، وحُكْمٌ غيرُ سديد كما سيتبين لك.

المفهوم الثاني: أنها عبارةٌ عن صفاتِ الأشياء وخصائصها، وقابلياتها، فهذه الصفات: من حرارةٍ وبرودةٍ، ورطوبةٍ ويبوسة، ومَلاسَةٍ وخُشونة. وهذه القابليات: من حركةٍ وسكونٍ، ونُمُوٍّ واغتذاء، وتزاوجٍ وتَوالُدٍ. كُلُّ هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة.

وسواء أكانَ القول الأول أو القول الثاني هو المُعَبِّرُ عن الطبيعةِ بحق، فما نصيبُ هذا القول من الحق؟

أما القولُ الأول: فلا يخرجُ بالطبيعةِ بالنسبة لخلق الوجود عن تفسيرِ الماءِ بالماء، فالأرضُ خَلَقَتِ الأرضَ، والسماءُ خلقت السماء، والأصنافُ صَنَّفَتْ نفسَها، والأشياء أَوْجَدَتْ ذاتها، فهي الحادثُ والمحدث، وهي المخلوقُ والخالق في الوقتِ ذاته. وبطلانُ هذا القول بَيِّنٌ، فهو إما ادِّعاءٌ بأنَّ الشيءَ وُجِدَ بذاته من غير سببٍ، وقد تبين لك فسادُه بقانونِ السببية (اذكر القاعدة الأولى)، وإما ازدواجُ الخالقِ والمخلوقِ في كائنٍ واحد، فالسببُ عَيْنُ المُسبَّب، وهو مستحيلٌ، بل هو من التهافتِ والتناقضِ بحيثُ لا يحتاجُ إلى الوقوفِ والشرح.

وأمـا القـول الثـاني: وهو الاعتمادُ على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين، فنقول فيه: الحقيقة أنَّ الذين يعزون الخَلْقَ إلى تلك القابلياتِ والخصائص، لا يَعْدُونَ عن كَوْنهم وَصَّافينَ لتلك الظواهر، لا يعرفون كُنْهَهَا، ولم يُكَلِّفُوا أنفسهم عناءَ البحثِ عن حقيقتها، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أنَّ القابليةَ التي اعتمدوا عليها في خَلْقِ الشيءِ سرابٌ خادعٌ يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِده شيئاً.

ولإيضاحِ ذلك بالطريقِ العلمي نضربُ المثالَ التالي:

نضعُ حبة في التراب، ونسقيها بالماء، فتنتفخ، وتنفلق، فيظهر منها الرُّشَيم، ويندفعُ منه الجذرُ إلى الأسفل، والساقُ إلى الأعلى، وتنشأُ الأوراقُ فالأزهارُ فالثمار، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحةً مثلاً.

فالقـابليةُ التي كانت في الحبـة هي الانتفـاخُ والانفلاقُ وظهـور الرشيم... ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطَّرَدَتْ تلكَ الظواهرُ الحيوية، ولما نشأت عنها الثمرة. فلنأتِ إلى هذه القابليةِ بالذات نبحث عن حقيقتها: لو لَمْ تنتفخ الحبةُ وتنفلق لما نشأ شيءٌ. فَمَن الذي نَفَخَها وفلقها؟ لو كان للحبةِ عقلٌ

وتدبيرٌ لقلنا: إنَّ عقلَها هو الذي هَيَّأَ لها ذلك، ولو أنَّ الماءَ هو الذي نَفَخَها وفلقها، لأمكن للماء أنْ ينفخ في الحديد ويفلقه، إذن فلا بد من مُؤَثِّرٍ، وقَبُولٍ لذلك التأثير.

وإذا كانت الحبةُ بذاتها ـ جدلاً ـ انتفخت وانفلقت فلماذا لم تَجْمُدْ وتَضْمُرْ بدلاً من أنْ تنتفخ وتنفلق؟!

ولكي يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك، ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة، والبذرةُ لا تملكُ شيئاً من ذلك، فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها؟! بَلْ كيف حصلت ثِمارٌ كثيرة متنوعة؟! وكيف كَمَنَتْ الغايةُ المعينةُ والصفاتُ المقصودة في صميمِ كُلِّ بذرةٍ منها؟!

والحقيقة أنَّ مَنْ أنعمَ النظرَ في تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية حينما يقولون: طُبِعَ النباتُ على ذلك. انتفخت الحبة، وانفلقت، وتوالدت الخلايا. تميل الخلية الحية إلى الانقسام، يجد أنها جميعها أفعالٌ مبنية للمجهول لجهلهم أو تجاهلهم الفاعلَ الحقيقي. فأين الفاعل؟

فكأنَّ الطبيعيَّ أغمضَ العينَ عن السبب الحقيقيِّ، وبَنَى الفعل للمجهولِ تَخَلُّصاً، فَمَنِ الذي نَفَخَ الحَبَّةَ؟ ومَنِ الذي

فلقلها، ومَنِ الذي أدَّى إلى التوالد؟ ومَن الذي جَبَلَ الخليةَ على الانقسام؟ ومن الذي جعلها تنتفخ بدلاً من أنْ تَضْمُر؟

كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعيين القصيرة، بل المقتصرةُ على وصفِ الظواهرِ دونَ الذهاب إلى أسبابها، بل المُخْطِئةُ في جَعْلِ الصفةِ المنفعلةِ سبباً فاعلاً، والقابليةِ مُؤَثِّراً، والظاهرةِ المجهولةِ عاملاً مُكَوِّناً، فالانتفاخُ صِفَةٌ نشأت عن المُؤَثِّرِ الخارجِ عن الشيء. وعن قَبُولِ أثره في ذلك الشيء، والانفلاقُ صفة، والامتدادُ صفة... وما من فاعل!

وما زادَ الطبيعيُّ على أنْ جعلَ من مجموعِ هذه الصفات مفهوماً مُرَكَّباً، سَمَّاهُ (قابلية التوالد والنمو)، فجعل من القابلية التي هي عَرَضٌ من أعراضِ الشيءِ سبباً في الخَلْق، ومن الصفةِ الانفعاليةِ التي لا تَعِي ولا تدرك سبباً فاعلاً واعياً في تكوين الأشياء!

إذن فَمَنِ الذي رَكَزَ الطبيعة في العناصر؟ ومن الذي نَوَّعَ تلك الطبائع؟

إنَّ بذرة الأجاص، وبذرة المشمش حين تُوضَعانِ في التراب تنتجُ كُلُّ واحدةٍ منهما ثمراً يختلفُ عن الآخر، بلونهِ،

وطَعْمِهَ، ورائحته، مع أنه يُسْقَى بماءٍ واحد، ومع اتفاقنا على أنـه ليس للبذرةِ عقلٌ، ولا لِجَذْرِ الشجرةِ إدراكٌ، فكيف كان الجـذرُ يمتصُّ المـاء ويصـطفي ذراتٍ بعينهـا ويُنْضـج النسغَ ويسوقه إلى الثمر، ويُكَوِّنُ العُصَارةَ، ويُنْشِئُ الحلاوة؟!

كل ذلــك يجعلنــا نســأل عن السبب، ولا نقف عنـد المجهــول، ولا نكتفي بوصف الـظواهـر، بل لا نَصِفُ هذه الـظواهـرَ خطأً بأنها أسبابُ الخَلْقِ الحقيقية. ونحنُ نعلم أنَّ القابليةَ ليست إلا صفةً من صفاتِ الشيءِ، فكيف تَخْلُقُه؟ وأنَّ الحبةَ بالنسبةِ للنباتِ جمادٌ لا يعقلُ، فكيف تُنَوِّعُهُ؟

وإذا لاحظتَ أننا مُجْبَرونَ بحكمِ هذه النظرة إلى طبائع الأشياء، أنْ نسألَ عن حقيقةِ تلك الطبيعة، وعَمَّنْ طَبَعَ الأشياءَ عليهـا، وكيف تُؤَثِّر؟ وهل تُبْدِعُ أم تُصَنِّفُ وتُرَكِّب، وهل هيَ فاعلةٌ بذاتها، أم مُنْفَعِلةٌ لغيرها؟ أدركتَ أنَّ الطبيعيينَ قد نقلونا من مجهولٍ واحدٍ إلى مجاهيلَ كثيرة، ومن الأصلِ الحاسمِ إلى الفـروع التي لا تحسمُ الأمرَ، فبينما كُنَّا نسألُ عن خالقِ الحبة، وفالقِ النوى، انتقلنا بتلك النظرةِ القصيرةِ المتجاهلة إلى صفـاتٍ انفعـالية ليس لها من القدرة على الخَلْق نصيبٌ

ووقفنا أمام مجاهيل كثيرة وألغاز محيِّرة! ولولا قَصْرُ النَظر عند الطبيعيين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دونَ مَسَوِّغٍ، لوجدنا الجوابَ شافياً منطقياً منسجماً مع ما تَقَدَّمَ من التحقيقِ العلمي في الآية الكريمة التالية:

﴿إنَّ الله فالقُ الحَبِّ والنوى يُخْرِجُ الحَيَّ من الميت، ومُخْرِجُ الميتِ من الحَيِّ، ذلكمُ الله فأنَّى تُؤْفَكُون﴾ [الأنعام: ٩٥]. وبذلك ترجعُ الأسبابُ كلها إلى الخالقِ الأول، وتُعْرَفُ المجاهيلُ، ويُحْسَمُ الأمر.

ولكي نزيدَ الأمرَ وضوحاً، نضرب لذلك مثلاً، مُحَرِّكَ السيارة، فإنَّ تَحَرُّكَ أجزاءِ المحركِ، واحتراقَ البنزين، والقوةَ الدافعةَ في محصول الانفجار، كُلُّ تلك الخصائص، قابلياتٌ وطبائع، فهل تَجِدْ أنَّ قابليةَ الاحتراق، وخاصةَ الانفجار، وقوانينَ الميكانيك، هي التي خلقتِ المُحَرِّكَ وأبدعتِ السيارةَ؟ لا شك أنَّ القابليةَ غير ذاتِ الشيء، وأنها إنْ كانت سبباً في اندفاع الظواهر، وبروز المظاهر، فهو في حدودِ التركيب والتصنيف، لا في حدودِ الخَلْقِ والإبداع، وهي في المراحلَ الأخيرة، لا في المرحلة الأولى من خَلْقِ الموجودات.

ولذلك إذا أراد الطبيعي الخروجَ من هذا المأزق، وأقرَّ معنا أنَّ هذه الطبائع أسبابٌ فرعية في مجال التكاثر والتنويع، ولا تَعْدو في حقيقتها تساندَ هذه الأسباب التي تكلمنا عنها في مبدأ السببية. قلنا له: رجعتَ إذن إلى الأصلِ الذي بحثنا عنه من قَبْلُ وأثبتناه، ولم تستطع أنْ تَجِدَ ضمن الكائناتِ من طبائعها ما يصحُّ أنْ يكون سبباً لإخراج الوجودِ من العدم.

وإذا أردتَ ـ أيها القارىء ـ أنْ تعرفَ العلةَ النفسيةَ في تكوين هذا الإلهِ الزائفِ (الطبيعة) لدى بعضِ الناس، وَجَدْتَها في السلسلةِ التالية:

عاينَ الإنسانُ صِفةَ الشيءِ، فأضافَ الصفاتِ بعضَها إلى بعضٍ، وكَوَّنَ من مجموعِ الصفاتِ مفهوماً، وسَمَّى المفهومَ قابليةً أو طبيعة، ومالت النفسُ إلى الراحة والاختصار، فجعلتْ من تلك الطبيعةِ في خيالها ذاتاً مستقلةً فَعَّالة. وجَمَدَ الخيالُ البشري على ذلك، وتَوَهَّمَ صاحبُه أنه وجدَ إلهَ الوجود، فأقبلَ عليه طائعاً، وأسْلَمَ له خاضعاً، من بعد أنْ صَنَعَهُ بيدهِ كما يفعلُ عابدُ الوثن، يصنعُه ثم يَتَخَيَّلُ أنَّ له النفع والضر، ثم يعبدُه!

وما أشَدَّ التشابه بين مَنْ كان يعبدُ الأصنامَ من قَبْلُ ويجادل

عنهـا، ومَنْ يعبـد الطبيعةَ اليومَ ويجادل عنها، فالعلةُ النفسية واحـدة، ونـوعيةُ الخطأ واحدة، ألا وهي الاصطناعُ في أولِ الأمـر، وتَوَهُّمُ الاستقلالِ والتأثيرِ في آخرِه، وقد أشار القرآنُ الكريم إلى هذه الخدعة في آياتٍ كريمة منها:

﴿ما تَعْبُدُونَ من دونِه إلّا أسماءً سَمَّيْتُموها أنتم وآباؤُكُمْ ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطانٍ إنِ الحُكْمُ إلّا لله، أَمَرَ ألّا تَعْبُدوا إلّا إياهُ، ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمون﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿قالوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ونَذَرَ ما كانَ يعبدُ آباؤنا فَأْتِنا بما تَعِدُنَا إنْ كنتَ من الصادقين. قال قد وقعَ عليكم من رَبِّكُم رِجْسٌ وغَضَبٌ أتُجَادِلُونَنِي في أسماءٍ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤكم ما نَزَّلَ اللهُ بهـا من سلطان فانتـظِرُوا إنِّي معكم من المنتظرين﴾ [الأعراف: ٧٠، ٧١].

فانـظر من أيِّ ناحيةٍ ضَلَّ البشرُ من قَبْلُ، ومن أيِّ ناحية يَضِلُّونَ اليوم. والقضيةُ ليست إلّا أسماء يُسَمُّونَها في البداية، ثم يجادلون عنها كحقيقةٍ واقعةٍ في النهاية.

وخلاصةُ القولِ في الطبيعة أنها:

إما قولٌ بأنَّ الأشياء حدثت بذاتها، وهو قولٌ ساقطٌ من كُلِّ اعتبار (اذكر القاعدة الأولى).

وإما قولٌ بأنَّ الصفات تَخْلُقُ الذاتَ، وهو أشَدُّ تداعياً وسقوطاً من القولِ الأول، لأنه إذا عجزت ذاتُ الشيءِ عن خَلْقِه، فكيف تَسْتَطِيعُه الصِفةُ؟

وإما اعتبارٌ للقابليةِ على أنها سَبَبٌ مُتَأَخِّرٌ كبقيةِ الأسباب، فتفتقرُ إلى المسبب الأول لِزَاماً وهو الذي به نقول، وتَقْنَعُ به العقولُ.

إذن ففي الأحوالِ الثلاثة لا بُدَّ من الرجوعِ إلى الخالق الأول، وتأتي الطبيعة متأخِّرَةً منفعلةً له مُفْتَقِرَةً إليه.

وهكذا نجد أنَّ الطبيعةَ إلهُ العصرِ المزعومِ لم تَثْبُتْ أمامَ النقدِ المنطقي والشرح العلمي، وليست بالنسبة للموجوداتِ سوى صِفَاتها وقابلياتها وقوانينها التي تجري عليها، وأنَّ طبائعَ الأشياءِ لا تخلقها، ومَنْ كان يبحثُ عن ذاتٍ مستقلَّةٍ لها، مُبْدِعةٍ فَعَّالة، خارجةٍ عن نطاقِ الأشياء، كان لا شَكَّ ينشدُ عنقاءَ المغرب.

التوحيـــد

إذا كان سرابُ الطبيعةِ قد تَبَدَّدَ أمامَ ناظريك، وأصبح أُفُقُ معرفةِ الخالقِ الأول واضحاً لديك، أمْكَنَكَ أنْ تستكملُ معرفتكَ هذه بالتعرُّفِ إلى صِفاتِه التي يُلْزِمُكَ بها البحثُ، مستنداً إلى الحقائقِ المتقدمة، وصِفاتِه التي تُسْتَنْتَجُ من ذلك فنقول:

هو الأولُ: ليس قَبْلَهُ شيءٌ، لأنَّ القولَ بشيءٍ قَبْلَهُ يجعل له حدوداً، والحدودُ من صفاتِ الحوادثِ، وقد فَنَّدْنَا ذلك من قَبْلُ (اذكر القاعدة الثانية).

وهـو الآخر: وليس بَعْدَهُ شيءٌ للمحذورِ نفسه، فهو إذن (الأَزَلِيُّ الأبدي).

وهو الحَيُّ: الحياة المطلقة، لأنه الواهبُ الحياة للأحياء، ولا يصحُّ إلا أنْ تكونَ مُطْلَقةً، لأنَّ النسبيةَ من صفاتِ الحوادث (اذكر القاعدة الثانية).

وهو مُتَّصِفٌ بالإرادةِ والمشيئة، لأنه لو لم يُرِدِ الخَلْقَ لما خَلَقَ شيئاً.

وهـو السميعُ العليمُ، البصيرُ القـديرُ، لأنَّ هذه الصفات لوازمُ صِفـة الحياة، ولمـا كان الإطـلاقُ[1] صفةً لحياتِه، كان الإطلاقُ ملازماً لجميع الصفاتِ الأخرى، بحيث لا يُعْجِزُ السمعَ أو البصرَ أو العِلمَ أو القدرةَ مُعْجِزٌ.

وهو الواحد: الذي لا شريكَ له في المُلْكِ.

ولِمَـا لهـذِه الصفـةِ من أهميةٍ عظيمـة، وخطورةٍ بالغة، نَخُصُّها بالتفصيلِ التالي:

لعلك أدركتَ من تسلسـلِ البحثِ، ومن ذِكْـرِ الصفات المتقدمة، ومن الجزمِ بكمالِه المطلق، أنَّ التوحيدَ حاصلٌ ولا يحتاجُ إلى برهان، بل إنَّ التعددَ هو الذي يفتقرُ إلى الدليل، ولكننـا على الرغمِ من ذلك، نَعْرِضُ لأمرِ التوحيد بالتفصيلِ لعلاقتِه الصميميةِ بواقعِ الحياة.

القـولُ بالتَّعَـدُّدِ، يُمْكِنُنَـا أنْ نختصـرَهُ بالتثنية، فإنْ ثبتتِ التثنيةُ، صَحَّ التعـددُ من غيرِ حَصْـرٍ، وإنْ بطلتْ بَطُلَ التعددُ

---

(١) الإطلاق: نفي للحدود، فحين يوصف الخالق ينفي عنه البداة والنهاية فيكون هو الأزلي الأبدي، وحين توصف به الصفات الالهية ننفي عنها التحديد والعجز والتقصير.

أصلاً، ولَزِمَ التوحيدُ.

فالقـولُ بالتثنية يُلْزِمُ بوجودِ صِفةٍ مُمَيِّزةٍ بين الاثنين، لأنَّ التساوي التام من جميعِ الوجوهِ باطلٌ، ولا يصحُّ بالتَّصَوُّرِ إلا إذا انطبقَ الأولُ على الثاني تمامَ الانطباق، فيبقى في النتيجةِ كائنٌ واحد، ومهما انعدمتِ الصفةُ المميزة انعدمَ التمييزُ.

فإنْ قال مُكـابـرٌ بإمكـانِ التمييزِ بين اثنين حالَ التساوي التـام، قلنا له: أقمتَ الحُجَّةَ على نفسِكَ حينما مَيَّزْتَ، وما مَيَّزْتَ إلا بإدراكِ صفـةٍ مُمَيِّزة، ووجـودُ صفـة مميزة، يُبْـطِلُ التساوي التام، وإذا بطل التساوي التام؛ حصل التفاضلُ بين الاثنين، فسقطَ المفضولُ وبقيَ واحد.

والقولُ بالتثنية من الوجهةِ الرياضية يُفِيدُ وجودَ إطلاقين، وذلك مُحَالٌ، لأنَّ إطلاق أحدهما ينافي إطلاقَ الآخر، فهو إما أنْ يدخـل في إطـلاقِ الأول، فيسقط إطـلاقـه ويبقى إطلاقُ الأول، وإما أنْ يخرجَ عن نطاقِ الأولِ، فيسقط إطلاق الأولِ المُفْتَرَضِ، ويبقى الثاني، أي: أنَّ الإطلاقَ مُحِيطٌ، ولا يُحَاطُ به، والنتيجةُ أنه لم يَبْقَ إلا إطلاقٌ واحد. فلم يبق إلا إلهٌ واحد.

وهذا كما أنه دليلٌ على التوحيد، فهو دليلٌ على حُدوثِ

العـالَم ، ونَفْي قِدَمِـهِ، لأنَّ القولَ بِقِدَمِهِ يفيدُ وجودَ إطلاقين، وذلك مُحَالٌ كما رأيتَ.

ومن هنـا نفهم المعنى العميق للآية الكـريمة: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأمرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. أي: أنه ليس تصريفُ الكونِ وحـدَهُ حادثـاً فحسب، بَلِ الكـونُ كُلُّهُ خَلْقـاً وتَصْرِيفاً مقهورٌ للخالقِ، فهو حادِثٌ بمادتِه ومعناه.

وإذا أردنا أنْ نزيدَ المعنى وضوحاً بالنسبةِ للتوحيدِ والتَّعَدُّدِ، قلنـا: حينَ وجودِ اثنين يَتَرَتَّبُ على أحدِهما أنْ يحيطَ بالثاني قُدْرَةً وعِلماً؛ فإن عجزَ عن ذلك، فهو ليس بإلَهٍ، ويبقيَ واحد. وإنْ قَدرَ على ذلك، سَقَطتْ ألوهيةُ الثاني، وبقيَ واحد.

وبعضُ الفلاسفةِ يُسَمِّي هذا بـ: برهان التمانع، فيقولون: لو كان هناكَ إلَهان، يريدُ أحدهما قيامَ زَيْدٍ في آنٍ، ويريدُ الآخَرُ قُعُودَهُ في ذلكَ الآنِ، فَمُحَالٌ نُفوذُ الإرادتين، لاستحالةِ المُرَادِ، وجَمْعِ الأضداد، فإنْ غَلَبَتْ إرادةُ أحدهما على الآخر، فهذا الآخرُ عاجزٌ مقهور، فهو ليس بإلهٍ، وبقيَ واحد.

وقد أورد ذلك ابنُ جريرٍ الطبري قال: «لم يَخْلُ كُلُّ واحدٍ من الاثنين... مِنْ أنْ يكـونـا قويين، أو عاجزين. فإنْ كانا

عاجِزَيْنِ، فالعاجزُ مقهورٌ، وغيرُ كائنٍ إلهاً، وإن كانا قويين، فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يُعْجِزُه عن صاحبِهِ عاجِزٌ. والعاجزُ لا يكون إلهاً. فإنْ كان كُلُّ واحدٍ منهما قوياً على صاحبِه، فهو بقوةِ صاحبِه عليه عاجِزٌ».

إذن لم يبق إلا الواحدُ المطلق الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، وما قالَ مَنْ قال بالتعددِ إلّا عن عقليةٍ ابتدائية، وفكرةٍ وثنية، وتَصَوُّرٍ خيالي مُصْطَنَعٍ، بعيدٍ عن التحقيقِ، مُصَادِمٍ للعقل.

ولم يَبْقَ في الدنيا مَمنْ يلتزمُ العقلَ والمنطقَ يقول بالتعددِ، بل إنَّ التحقيقَ لا يرشِدُ إلا إلى التوحيد، بريئاً من صفاتِ الحوادثِ، كالإلصاقِ والتفريعِ والولادةِ. فكما أنَّ التَّعَدُّدَ باطلٌ، فَطُرُوُّهُ مِنْ بَعْدُ أشَدُّ بطلاناً وأقبح، كما هو الأمرُ في بعضِ الديانات.

وهكذا ينهارُ التعددُ بجميعِ صوره، كالتثنيةِ والتثليثِ وغيرهما، على الرغم من إقامةِ كثيرٍ من البشرِ اليوم على هذه العقيدةِ الفاسدةِ بكل أسف، ولو رجعوا قليلاً إلى العقل والمنطق لانهدمتْ أمامَهُمْ هياكلُ الوثنيةِ وأساطيرُ التعددِ، لقوةِ

البرهانِ، وصراحةِ الحجة، وثورةِ العقلِ على هذا التناقضِ المشين.

فليت شعري متى يثورُ مُفَكِّرُو العالمِ الأحرارِ وعُقَلاؤُه المُتَجَرِّدُونَ على هذه الوثنيةِ النكراء فَيُمَزِّقُوا غشاءَ العنكبوتِ ويقودوا العالَمَ إلى التوحيد؟!

والقرآنُ الكريم الذي حملَ لواءَ التوحيدِ للناسِ، نَصَّ على ما تَقَدَّمَ من تفنيدِ التعددِ وبُطْلانِه، وتأكيدِ التوحيدِ وثبوتِه في آياتٍ كثيرة حَمَلَتْ أنصعَ بيانٍ وأقوى برهان.

﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿ما اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ، وما كانَ مَعَهُ من إلهٍ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ، وَلَعَلاَ بَعْضُهم على بعضٍ، سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُون، عالِمُ الغيبِ والشهادةِ فتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

﴿هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بِكُلِّ شيءٍ عليم﴾ [الحديد: ٣].

﴿ألا إنَّهم في مِرْيَةٍ من لِقَاءِ رَبِّهم، أَلَا إنَّهُ بِكُلِّ شيءٍ

مُحيط﴾ [فصلت: ٥٤].

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ. ولم يَكُنْ له كُفُواً أحد﴾.

وهكـذا تَثْبُتُ حقيقةُ التوحيدِ للخالقِ القديمِ بما لا يَدَعُ مجالاً للرَّيْبِ والتردد.

والأحـرى بالعالِمِ المُحَقِّقِ، أنْ يدعو الناسَ إلى ذلك، ويُفَنِّـد لديهم نِحْلَةَ التعـددِ، ويفضـح زيفَهـا وبُطْلانها، لكي يَخْـرجُوا من الظلماتِ إلى النورِ، ومن التناقضِ المشينِ إلى الانسجامِ المنطقيِّ المبين. وبذلك تخرجُ النفسُ البشريةُ مما تُعانِيه من الحيرةِ والتردُّدِ، والكَبْتِ والقَلَقِ، والجُنوحِ بالنتيجة إلى السُّبُلِ الجائرة، والمناهج المنحرفة، والمبادىءِ المُضْحِكَةِ المبكية، والتي يُثْبتُ التحليلُ النفسيُّ أنها ليست إلّا صورةً ماديةً بهيميةً، أو وثنيةً عَصْرية، تُعَبِّرُ عن إفلاسِ البشر في هذا العصر عن التماس طريق الإيمان بالواحد الأحد، وبذلك تهدأ النفوس، وتستريح العقول، وتطمئن القلوب.

أدلّــة القُــــرآن

النَّشأة الأُولى

جاء القـرآنُ الكـريم بليغـاً، والبـلاغـةُ تقتضي الإيجازَ، ولـذلـك دعا القرآنُ إلى التَّدَبُّرِ حِينَ تلاوتِه ـ ﴿لِيَدَّبَّرُوا آياتِه﴾ [ص: ٢٩]. ﴿أَفَـلَا يَتَـدَبَّرونَ القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالُها﴾ [محمد: ٢٤] ـ وذلك لاستجلاءِ المعاني، واستنباطِ الأحكام. أمَّا مَنْ لَمْ يَعْتَدِ البلاغةَ، ولم يُكَلِّفْ نَفْسَهُ عناءَ التفكير، وأقفلَ قلبَـهُ عن التـدبُّـر، فإنـه يقرأُ القرآنَ ولا يفهم كثيراً منه، ويَمُرُّ بالمعنى ولا يَفْقَهُـهُ. وربمـا قرأ الآيةَ المشتملة على سِفْر من المعاني دون أنْ يَخْطُرَ على بالِه معنى واحد. ولذلك فليست العبرةُ في القراءة، ولكنَّ العبرةَ في القارىء وفي ما يقرأ.

ونحنُ نُورِدُ هنا بعضَ الآياتِ المتصلة بالبحثِ، مما يتعلقُ بالخَلْقِ والـوجـودِ، وتـدبيرِ أحوالِ الكائنِ الحَيِّ، كأدلةٍ على الخـالق من تدبيرِه، وعلى المُصَـوِّرِ من تصويرِه، وعلى عَجْزِ

المخلوقِ وقُصُورِه.

فَمِمَّا وَرَدَ في الكتابِ حولَ النشأةِ الأولى:

﴿أَمْ خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُون؟ أَمْ خَلَقُوا السمواتِ والأرض بل لا يوقنون﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وتشيرُ الآيةُ الأولى إلى عدم إمكانِ وجودِ الحادثِ بغير مُحْدِثٍ، فَتُلْزِمُ المُرتَابَ بالإقرارِ بخالِقه.

وتشير الآية الثانية إلى عَجْزِ المخلوقِ عن خَلْقِ السمواتِ والأرض، من بعد أن ثبت عجزه عن خلقِ نفسه، وبذلك تُلْزِمُه بالإقرار بخالق الوجود.

وهكذا تُجْمِلُ هاتان الآيتان البحثَ عن (السببية) الذي تَكَلَّمْنَا عنه في أولِ الرسالة.

ومِمَّا وَرَدَ في القرآن الكريم حولَ قُصورِ الإنسانِ عن خَلْقِ نفسه وإخراجها من العدم.

﴿أَوَلَا يَذكرُ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً؟﴾ [مريم: ٦٧].

﴿هل أتى على الإنسانِ حِينٌ من الدهرِ لم يَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً﴾ [الدهر: ١].

﴿مـا أَشْـهَـدْتُهُمْ خَلْقَ السمـواتِ والأرض، ولا خَلْقَ أَنْفُسِهم، وما كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

ثم يُبَيِّنُ له عَجْزَهُ عن تدبيرِ أمرِ خَلْقِه في الرَّحِمِ:

﴿إنَّـا خَلَقْنَـا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمشاجٍ نَبْتَلِيه فَجَعَلْنَاهُ سميعـاً بصيرا﴾ [الـدهـر: ٢]. ﴿هـو الـذي يُصَـوِّرُكُم في الأرحامِ كيف يشاء﴾ [آل عمران: ٦].

فَبَيَّنَ الخـالق للمخلوق أنـه ليسَ هو الـذي كَوَّنَ النـطفة (الحيوان المنـوي) وأنَّى له ذلـك وقـد دَقَّتْ حتى لا تُرَى إلَّا بالمجهـر، واقتضت للحياةِ والتـوالـدِ شروطـاً حيوية غايةً في الضبط والدقة.

ولـو درستَ أطـوارَ النشـأةِ الأولى منـذ ورودِ الأغذية من الأرضِ إلى البدن، واصطفائِه منها بِقَدْرِ ما تَسْتَلْزِمُه النطفةُ، وإحالةِ ما اصْطُفِيَ إلى الأنابيبِ المنوية، واشتغالِ تلك المراكزِ الحيوية بِتَطوُّرِ تلكَ الخلايا الحية، ونشوءِ البييضةِ بمثلِ ذلكَ عند الأنثى، واجتماعِ النطفةِ بالبييضةِ بشروطهما الضرورية ـ كُلُّ ذلكَ بنظامٍ دقيق، وعيارٍ معلوم، واستمرارٍ عجيب ـ إلى أن يخرجَ الكائنُ بشراً سَوِيّاً ﴿هو أَعْلَمُ بكم إذْ أنشأكم من الأرضِ،

وإذْ أنتم أَجِنَّةٌ في بُطُونِ أُمَّهاتِكُم﴾ [النجم: ٣٢].

أقول: تجري جميعُ تلك الأطوارِ العجيبةِ، والتفاعلاتِ الحيويةِ الدقيقةِ، في باطنِ الإنسان دونَ إرادته، وبغيرِ تدبيرِه وإحاطته، بل إنه لو حاول ذلك لعجزَ، وكُلَّمَا تَأَمَّلَ ازداد عجباً، وليسَ دَوْرُه فيما اشتملَ عليه جسمُه من هذه الحقائق العلمية، والقواعدِ الحيوية، إلا دَوْرُ المُتَفَرِّجِ العاجزِ عن التَّدَخُّلِ. وقد أشارتْ إلى تلك الأسرارِ العظيمةِ الآياتُ التالية بأجلى بيان:

﴿نَحْنُ خَلقناكُمْ فلولا تُصَدِّقُون. أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُون. أأنتم تَخْلُقُونَهُ أمْ نَحْنُ الخالقون. نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموتَ وما نحنُ بمسبوقين. على أنْ نُبَدِّلَ أمثالَكُمْ وننْشِئَكُمْ في ما لا تَعْلَمُون. ولقد عَلِمْتُمُ النشأةَ الأولى فلولا تَذَكَّرُون؟﴾ [الواقعة: ٥٧، ٦٢].

ثم يَصِفُ أطوارَ الخَلْقِ ومراحلَ الحياة في الرحم:

﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ من سُلالةٍ من طِين. ثم جَعلناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكين. ثم خلقنا النطفةَ عَلَقَةً، فخلقنا العَلَقَةَ مُضْغة، فخلقنا المضغةَ عِظاماً، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً، ثم أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخرَ فتبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٤].

﴿يا أَيُّهَا الإنسانُ ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريم. الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَك. في أيِّ صُورةٍ ما شاءَ رَكَّبَك﴾ [الانفطار: ٦، ٨].

﴿إنَّ الله لا يَخْفَى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السماء. هو الذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرحامِ كيف يشاء﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

وبهذا يتبينُ أنْ لا إرادةَ لكَ ولا تدبيرَ في تحويلِ النطفةِ إلى عَلَقة، والعلقةِ إلى مُضْغة، وتكوينِ العِظام وكسوةِ العظامِ لحماً، وتصنيفِ الأنسجةِ، ونشوءِ الأوعيةِ، وتوزيعِ الأعصابِ، وتصويرِ الصورةِ؛ بَلْ أينَ أنتَ من تَبايُنِ الأخلاطِ، واختلافِ العُصَاراتِ، ما بينَ اللُّعابِ والمُخاط، والدَّمْعِ والصملاخ، وعصارةِ الأمعاء والصفراء، ومقاديرِ السُّكَّرِ والزلال، وتَوازُنِ الحُموضةِ والقلويةِ في الأخلاط، إلى آخرِ ما هنالك من دِقَّةٍ في خَلْقِ الأعضاء، وضَبْطٍ في عيار الأجزاء، مما تعجزُ عنه مخابرُ الكيمياء والفيزياء. لا ريبَ أنَّ ذلك تدبيرٌ من حكيمٍ عليم: ﴿وفي الأرضِ آياتٌ للمُوقنينَ. وفي أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُون﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

ولـو سألتَ أعلمَ أهلِ الأرضِ، في عصر الذرة والتقدم التقني Tecnologie ـ عَمَّنْ جَبَلَ[1] المعتكلة (البانكرياس) على إفرازِ (الأنسولين) الذي يُنَظِّمُ سُكَّرَ الدم، والخصيةَ على إفرازِ الهُرْمُون الذي يَهَبُ صِفاتِ الذُّكُورة، والغُدَّةَ النُّخَامِيةَ على إفرازِ هُرْمُونات النُّمُوِّ والتكاملِ بحيثُ لو اخْتَلَّ إفرازُ إحداها، لأُصِيبَ الإنسـان بداءِ السُّكَّـرِ، أو بالأُنـوثـةِ بعد الذُّكُورةِ، أو بالقَزَامةِ (Naniame) بَدَلَ الـطولِ الـطبيعي ـ لاعتـرفَ لكَ ذلـك العالِمُ بالعجـزِ، وأقَـرَّ بتـدبيرِ الخالقِ العظيم، وقُدْرَتِه المُحِيطةِ بكلِّ شيء، وحِكْمَتِه التي لا يخلو منها شيءٌ، وأنَّ الأشياءَ مَرَدُّهَا إلى خزائنِ مُلْكِـه، وبُـروزُهَا رَهْنُ إرادتِه على الصورةِ التي يريدُ، والحِكْمةِ التي يشاء.

﴿وإنْ من شيءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُه وما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم﴾ [الحجر: ٢١].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ من دُونِ الله أَرُونِي ماذا خَلَقُوا من الأرضِ أمْ لهم شِرْكٌ في السمواتِ، ائتُوني بكتابٍ من قَبْلِ هذا أو أَثَارَةٍ من عِلْمٍ إنْ كنتم صادقين﴾ [الأحقاف: ٤].

---

(١) جَبَل: خَلَقَ، وفَطَر.

ولكي يُبَيِّن لكَ أنَّ تَعَلُّقَ الحياةِ في الكائن الحَيِّ راجعٌ إليه وحده في أصغرِ الكائناتِ الحية وأعظمها، يَتَحَدَّى البارىء قُدْرةَ الإنسانِ بالآيتين التاليتين:

﴿يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا له، إنَّ الذين تَدْعُونَ من دُونِ الله لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً ولَوِ اجْتَمَعُوا له، وإنْ يَسْلبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب. ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه إنَّ الله لقويٌّ عزيز﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

ولعلَّ قائلاً يقول: إنَّ الإنسانَ صنعَ الصاروخَ، وفَجَّرَ الذَّرَّةَ، واصطنعَ القمرَ، فجوابه: إنَّ الخَلْقَ غيرُ الاصطناع. فالخَلْقُ إيجادٌ من العَدَمِ بغير تجربة، ولا تلفيقِ مواد سابقة. ولهذا يعجزُ البشرُ كافةً عن خَلْقِ ذُبابةٍ أو بَعُوضَةٍ، وإظهار سِرِّ الحياة فيها.

وقد يَلْتَبسُ على الغَبيِّ، الخَلْقُ بالاصطناع، فيقولُ ما قال. وليته تَذَكَّرَ الآيةَ الكريمةَ قبل أنْ تزلَّ قَدَمُه.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يخلق أفلا تَذَكَّرُون﴾ [النحل: ١٧]. إذنْ لأدركَ الفرقَ العظيم بين الخلْق والاصطناع. ولذلك يعجزُ علماءُ الذرةِ اليومَ أنْ يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، لأنَّ سِرَّ الحياةِ لا يملكه أحدٌ من البشر.

النشأة الأخرى

(إحْيـــاءُ المَوْتـــى)

كيف لا يعجــزُ علمـاءُ الأرض: الأطبـاءُ، والحكمـاء، وأربابُ الاختصاص، عن نَفْخِ الحياةِ في الجمادات، وسَرَيانِ الروحِ في الكائنات، وكُلُّهم مُجْمِعُونَ على أنَّ سِرَّ الحياةِ أمرٌ مجهولٌ لا يُعْرَفُ كُنْهُهُ ولا تُدْرَكُ ماهِيَّتُه، بل إنهم ليقفون حَيَارى أمامَ سريانِه في الجامدِ الميتِ فيكون حياً، وخروجه من الحَيِّ فيكون ميتاً، ولا يُعَرِّفُونَ الحياةَ في أضخم المؤلَّفاتِ (البيولوجية) الحـديثـةِ إلا بظواهرها، والمقارنة بين صفاتِ الحيِّ وصفاتِ الميت، حتى أضحى أمرُ الروحِ ونفخُ الحياة سراً مُعْجِزاً خارجاً عن نطاقِ قُدْرةِ الإنسان، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة:

﴿إنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّــوى يُخْــرِجُ الحَيَّ من الميتِ ومُخْرِجُ الميتِ من الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فأنَّى تُؤْفَكُون﴾ [الأنعام: ٩٥].

والآية الكريمة: ﴿ويَسْأَلُونَكَ عن الرُّوحِ قُلِ الروحُ من أمْرِ ربي وما أُوتِيتُمْ من العِلْمِ إلاَّ قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

إن تَعَاقُبَ الموتِ والحياة، وظهورَهُمَا أمامَ أعيننا على مسرحِ الوجود، في ألوفِ المشاهدِ في الحياةِ النباتية، يفتحُ أمامَنَا بابَ النظر في أمرِ عودةِ الحياةِ إلى الميت، وهذا ما أرْشَدَنا إليه القرآنُ الكريم في آياتٍ كثيرة منها:

﴿ومِنْ آياتِه أنَّكَ تَرَى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وربَتْ، إنَّ الذي أحياها لَمُحْيِي الموتى، إنه على كُلِّ شيءٍ قدير﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وهُوَ الذي يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رَحمته، حتى إذا أَقَلَّتْ سحاباً ثِقالاً سُقْنَاهُ لبلدٍ ميتٍ فأنزلنا به الماءَ، فأخرجْنَا به من كُلِّ الثمراتِ كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقد يقولُ قائل: هذا في النباتِ حيثُ يبقى الجَذْرُ أو البذر فأينَ يكونُ هذا في الإنسانِ؟

ونقولُ لهذا السائل: ثَبَتَ بالتجربةِ العلمية ظهورُ الحياة في الجمادِ بعد زوالِ جميع آثارِ الحياةِ وانعدامِ الجُذورِ والبذور،

فقد أُخِذَت الخلايا النباتية من الوجهِ السفلي لأوراقِ (التنباك) وسُحِقَتْ سحقاً شديداً، وعُرِّضَتْ لحرارةٍ عالية حتى فَنِيَت الخلايا، وزالتْ آثارُ الحياة، وتَحَقَّقَتْ صِفاتُ الممات، ولم يَبْقَ فيها لعودةِ الحياةِ جَذْرٌ ولا بِذْرٌ، فلما اسْتُنْبِتَتْ ظَهَرتْ فيها الحياةُ من جديد ﴿إنَّ الذي أحياها لَمُحْيِي الموتى﴾.

وظهورُ الحياةِ في النباتِ، هو عَيْنُ ظهورِ الحياةِ في أيِّ كائنٍ حي، من وجهةِ النظرِ العلمية، ذلك أنَّ العلماء اتفقوا على مبدأ وحدةِ الحياةِ لدى النباتِ والحيوان (Lúnitevitale) فإن ظهورَ الحياةِ في الكائنِ موقوفٌ على تَكَوُّنِ الخلية، وانتعاشها، وتوالدها، ومتى اطَّرَدَ فيها التوالدُ وُجِدَ الكائنُ الحي كما كان. وإن عودةَ الحياةِ النباتية المشهودة راجعةٌ إما إلى انتعاشِ الخلايا وتَوَالُدِهَا وهو الأغلبُ، وإما إلى تَكَوُّنِ الخليةِ من جديد، ثم انتعاشها وتوالدها، كما في تجربةِ أوراقِ (التنباك)، وإذا كان ممكناً في النباتِ، فهو مُمْكِنٌ في الحيوان، لانسحاب (قانون وحدة الحياة) على النوعين بمقياسٍ واحد.

ولذلك نجد أحدثَ النظرياتِ العلمية في نشوء الجراثيم (Les microbes) قد رجعت إلى (نظرية التوالد الذاتي) ولكن بثوبٍ

آخر، حينما قررت أنَّ أصلَ الجرثومةِ قبل أنْ تتكوَّن (ذرة ببتيدية peptides): (ذرة من الزلال).

لاحظ ذرة من الزلال تَظَاهَرَتْ فيها الحياةُ، فكانت خليةً حية، فكوَّنَتْ بمجموعِ صِفاتِها جرثوماً معيناً، فَتَوالَدَ، فكانت منه سلالةٌ جُرثوميةٌ كاملةَ. تجد أن حياة هذا الحيوان قد نشأت من ذرة غذائية جامدة في شروط معينة.

وإذا أردنا أنْ لا نذهبَ بعيداً، قلنا: إنَّ النطفةَ والبُيَيْضَةَ اللتين خُلِقَ منهما الإنسانُ، لم يكونا شيئاً، قبل تَكَوُّنِ الأولى في الأنابيبِ المنوية، والأخرى في المبيض، وهذا يعني أنَّ الإنسانَ خُلِقَ في المرحلة الأولى مما يحمله الدم من الذرات العضوية والمعدنية. أي أنه نشأ في البداية من غير بذر ولا جذر ثم تحولت تلك الذرات إلى خلايا (النطفة والبييضة) كما هو معلوم.

﴿أَوَلَا يَذكرُ الإنسانُ أنَّا خَلقناهُ من قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً﴾ [مريم: ٦٧].

﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُون أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نحنْ الخالقون؟﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

وهذا هو جوابُ مَنْ يقول: كيف تعودُ للإنسانِ الحياةُ من بعد أنْ تَفْنَى أجزاؤُه في التراب؟ كما حَكَى ذلك عنهم القرآنُ الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقناهُ من نُطفةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ. وضَرَبَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحْيِي العِظامَ وهي رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيها الذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مرةٍ وهو بِكُلِّ خَلْقٍ عليم﴾ [يس: ٧٧-٧٩].

فالذي جمع أجزاءَهُ من التراب ووَهَبَهُ الحياةَ وما كان شيئاً مذكوراً، قادِرٌ أنْ يجمعَ أجزاءه ويُنشئه نشأةً أخرى، كما أنشأَهُ أوَّلَ مرةٍ، أما الكيفيةُ فقد تختلفُ ولكنها لا تَرُدُّ هذه الحقيقةَ الواضحة.

وما أجملَ هذه الجُمْلةَ المعترِضةَ في الآيةِ المذكورة ﴿ونسي خلقه﴾ في تَبْيِينِ الغَرَض. ذلك أن جاحِدَ النشأةِ الأخرى لم يَجْحَدْ إلا حينما نَسِيَ النشأةَ الأولى، ولو تَذَكَّرَ خَلْقَهُ، وأدرك أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، لاهتدى بنظرةٍ عفويةٍ منطقيةٍ إلى القول: الذي خلقني أولَ مرةٍ يَخْلقني مَرَّةً أخْرىٰ.

فالعلةُ إذن في هذا الجحود، الغَفلةُ والنسيان، أو المكابرةُ والعصيان، وإلاَّ فأينَ تَجِدْ عاقلاً يَخْفَى عليه أنَّ المعملَ الذي صنعَ السيارةَ أولَ مرةٍ قادرٌ على أنْ يصنعها مرات، والمفتاحُ هو المقدرةُ في أولِ مرة، فمتى حصلتْ كانَ البابُ مفتوحاً أبداً.

فلذلك شَدَّدَ القرآنُ الكريمُ على تَذَكُّرِ **النشأةِ الأولى**، والقدرةِ المطلقةِ، لكي لا تُشْكِلَ النشأةُ الأخرى على الإنسانِ: ﴿نَحنُ قَدَّرْنَا بينكمُ الموتَ وما نحنُ بمسبوقينَ. على أنْ نُبَدِّلَ أمثالكُمْ وننْشِئَكُمْ في ما لا تَعلمونَ. ولقد عَلِمْتُمُ **النشأةَ الأولى** فلولا تَذَكَّرُونَ﴾؟ [الواقعة: ٦٠، ٦٢].

وقد أثبتنا في هذا الفصلِ عودةَ الحياةِ إلى النبات، وإلى الطبقةِ الدنيا من الحيوان (الجراثيم)، وإمكان عودةِ الحياةِ إلى الإنسان، وفَنَّدْنَا القولَ باستحالتها. أما حتميةُ هذه العودةِ فسيأتي الكلامُ عليها في فصلِ الحساب والعقاب.

وعلى ضوء تجربة (أوراق التنباك) المذكورة، والحقيقة العلمية التي تقولُ بِتَوَلُّدِ الجُرثومِ من ذرةٍ بروتينية، وانبعاثِ نظريةِ التوالدِ الذاتي بهذا الثوبِ الجديد، نلاحظُ الأمورَ التالية:

١ـ تنهـدم فَرَضيةُ (نُشـوء الحياةِ على الأرض من هبوطِ جراثيم من بَعض الكواكب)، فهي وإنْ كانت فرضيةً مُسْتَهْجَنةً مُضْحِكة، فقد قام الدليلُ العلمي على نَقْضِها، وهَتْكِ سترها، والعَجَبُ من وُلُوجِ مثلِ هذا القولِ إلى عقولِ المفكرينَ وهو في الأصلِ لم يرافقه أيّ دليلٌ، عدا ما يبدو عليه من السخف من أولِ وَهْلةٍ، فهو أشْبَهُ ما يكونُ بخيالِ الوثنيين في اصطناع آلهتِهم التي يَعْكفُون عليها.

٢ـ قديُخَيَّلُ لغيرِ الحَصِيفِ، أنَّ الحقيقةَ العلميةَ المذكورةَ تؤيدُ قولَ الـطبيعيين بظهورِ الحياة على الأرضِ من غيرِ خالقٍ ولا مُدَبِّرٍ، ونحنُ نُذكِّرُ القارىءَ بما أثبتناهُ في (بحث الطبيعة) من تفصيلٍ في هذا الشأنِ حيث ذهبنا إلى الأصول ولم نقف عند الفروع. ولو أردنا أنْ نعيدَ البحثَ هنا لرجعنا إلى القول:

مَنْ خلق ذرة الـبــروتين؟ ومَنْ جعلهــا قابلةً للحياةِ بدل الموت؟ ولماذا تسيرُ ذرةُ البروتين في غائيةٍ حيوية مُطَّردة؟ ومَنْ هيَّأ لها ظروف النمو والحياة من حرارة ورطوبة وهواء بمقاديرها الدقيقة إلى أنْ ننتهي إلى القولِ بأنَّ الطبيعةَ ليست إلا مجموعةً من الأسبابِ تفتقرُ إلى المسبب الأول: ونظاماً مُطَّرداً يدلُّ على

المُنَظِّمِ القادر، وقد تَوَصَّلْنَا إلى ذلك من قَبْلُ بما يُغني عن تكرارِه وإعادته. كما نُذَكِّرُ القارىءَ بما هو أبعد من ذلك، حيث أثبتنا في أولِ الكتاب أنه لا بُدَّ لهذا العالم من خالق (القاعدة الأولى)، فلا يَصِحُّ أنْ يسوقَنا الخيالُ إلى نَقْضِ البرهانِ القطعي، ونحنُ لا نلفتُ نظرَ القارىء إلى كُلِّ ما تَقَدَّمَ إلا لِنَعْصِمَهُ من التوهُّمِ أو الزيغ عن طريقِ الحق.

٣ـ وقد تُذَكِّرُنَا هذه الحقيقةُ العلمية بِفَرَضيةِ (دارون) التي انزلقَ في غيِّها كثيرون دونَ نَقْدٍ ولا تمحيص، فإنْ كانت فَرَضِيةُ الطبيعيين التي ألمعنا إليها في الفقرةِ السابقة لا تملكُ الدليلَ العلمي، وتَفتقرُ إلى براهين عديدة حيالَ كُلِّ مرحلةٍ من مراحلها، فإن فَرَضيةَ التطور (لدارون) تحتاجُ بالإضافة إلى ذلك، إلى إثبات تطور النوعِ إلى نوعٍ آخر، وهو أمرٌ لم يَثْبُتْ في نَظَرِ العلم، بل أثبتَ العلمُ استحالتَه!

وقبل نَقْدِ هذه الفرضية وَجَبَ التعريفُ بها لكي يكونَ القارىءُ على بَيِّنَةٍ من الأمرِ في نَقْضِهَا فنقول:

إن فرضية (دارون) تَدَّعي أن الحيوانات على اختلافها، أَصْلُها واحدٌ، ثم تطور هذا الأصلُ إلى فصائلَ حسب اختلافِ

البيئةِ والظروفِ المحيطة، فكانتِ الحيواناتُ المختلفة، ومنها الإنسان، وهي تستندُ في هذا الزَّعْمِ إلى النقاط التالية:

١ـ تلاؤم الكائن الحي مع البيئة:

ونضرب لذلك أمثالاً:

الإنسان في القطب الشمالي سمينٌ مُكْتَنِزٌ بالدُّهْنِ ليقي نَفْسَهُ من البرد، بينما هو في منطقة الاستواء نَحِيلٌ هزيل.

حيواناتُ الكهوفِ المظلمة عمياءُ لا بَصَرَ لها، لأنها تعيشُ في الظلام فتنعدم لديها وظيفةُ البصر، بينما نجد أمثالها في المناطق المكشوفة تتمتعُ بوظيفةِ البصر.

أفواه الحيوانات وأطرافها وجلودها تَتَلاءمُ مع الجَوِّ الذي تعيشُ فيه وتتناسب مع حاجاتها وشروط غذائها. أما الأفواهُ فإما مزودة بأسنان، أو بمناقير أو بخراطيم، أو بمناشير، حسبَ الحاجةِ والبيئة، وأما الأطرافُ فإما طويلة أو قصيرة أو ظاهرة أو باطنة، وهي إما أيْدٍ أو أرجلٍ، أو أجنحةٍ، أو زعانِفَ، وبأصابع أو غير أصابع حسب الحاجة والبيئة.

وأما الجلود فإما خشنة أو ملساء أو مشعرة أو ذات حراشف، متناسبة مع البيئة والحاجة أيضاً.

٢ـ تشابه الكائنات الحية:

تتشابه الكائنات الحية في أطرافها وأصابعها وقلوبها وأجهزتها العصبية والعضلية والعظمية والتناسلية، والحمل والولادة. واستعان أنصارُ الفَرَضيةِ بالتشريحِ لكشفِ التشابه الخَفِيِّ الذي لا يبدو لِلْعَيان.

كإشارَتِه إلى عِضلاتِ الأُذن عند الإنسان، والزائدة الدودية، وما يُشْبِهُ الجفنَ الثالث الموجود عند الطيور، مُدَّعياً أنها بقايا التطور، لانعدامِ وظائفها عند الإنسان.

٣ـ تطور الجنين في الرحم:

من مرحلة العلقة إلى المضغة إلى الصورة الكاملة، واختلافِ المظاهر أثناء ذلك من مظهرِ الخياشيمِ أو الذيلِ أو الشعرِ الذي يَعُمُّ البدنَ، ثم اختفاء تلك المظاهر تدريجياً في نهاية التخلق. واستعان أنصارُ الفرضية أيضاً بالحفريات التي كشفت لهم كما زعموا عن جماجمَ بشرية تشبهُ جماجمَ القرود.

٤ـ ثم ادعى (دارون) أنَّ الترقي حَدَثَ بحوافز داخلية وبدون يَدٍ خَلاَّقة من خارجِ الكائن الحي...

وها نحنُ أُولاءِ ننقد تلك الفقرات فقرةً فقرة ليتبين وجه الحق.

١ـ أما تلاؤمُ الكائنِ الحي مع البيئة فهو تَلاؤمٌ ظاهر يتعلقُ بالجلدِ والشعـر والأطراف والحواس، وليس انقلاباً في حقيقةِ المخلوق، ولا انتقالاً به من فصيلة إلى فصيلة، ذلك أنَّ تَغَيُّرَ الحيوانِ من فصيلةٍ إلى أخـرى مرتبطٌ بصميم بذرته الأولى أو نطفته. وقد كشف العلمُ النقابَ عن ذلك فأظهرَ أنَّ لكل نوعٍ تركيبـاً أسـاسياً مميزاً في خليتـه الأولى يتجلَّى بعـدَدِ (العُرَى اللونية): Chromosomes حيث يكـونُ لكلِّ حيوانٍ عَدَدٌ مُعَيَّنٌ لا يتغير، وبه يتميز، وما لَمْ يَتَغَيَّرْ يَكُنْ من المستحيلِ تَبَدُّلُ النوعِ إلى نوعٍ آخر، أو انقلابُ الفصيلةِ إلى فصيلةٍ أخرى، وتلك حقيقةٌ علمية لا تنازع.

ومَنِ اطَّلَعَ على هذا، أدركَ الفرقَ الكبيرَ بين ما أثبته العلم من ارتبـاط، بين جِبِلَّةِ النطفة وما تُعطيه من خصائص النوع. وبين ما يَدَّعيه (دارون)، من زَعْمِ التطورِ الذي لم يُشَاهَدْ منه إلا تغيرُ الظواهرِ التي لا صِلَةَ لها البتةَ بتغيرِ النوع.

إنَّ تغيرَ الخلايا البشرية Epithelium أو الخلايا العضلية، أو

الأبعـاد الـظاهـرة، من طُولٍ وقِصَـرٍ، ونُمُـوٍّ وضُمور، حسب الحاجة والمحيط، غَيْرُ تَغَيُّرِ خلايا النُّطَفِ في صميمها، والتي يرتبط بها تَبَدُّلُ النوعِ ، بل لا يمكن أنْ يَتَبَدَّلَ إلا بذلك، فأينَ هذا من ذاك؟

الحقيقة أن نَظَرَ (دارون) كان بعيداً عن التحقيق، قريباً من الخيالِ الواسع، وربما أَغْرَتْهُ تلك الظواهرُ الكثيرة من التلاؤم، بانسجامها وتلاحقها، لكي يقولَ ما قالَ مع أنَّ هذه الملاحظةَ لم تَخْفَ على عامةِ الناسِ ، فإنهم يلاحظون أنَّ الأقدامَ الحافيةَ تَغْلُظُ خلاياهـا البشـرية مع الزمن، حتى تُكَوِّنَ ما يُشْبِهُ النَّعْلَ دِفـاعـاً عن القَدَم، وهو تغيرٌ ظاهري كما يرى كُلُّ عاقلٍ ، لا علاقةَ له بصميمِ الخِلْقَةِ، ولا بتغيُّرِ النوعِ ، فكيف إذا أُضيفت إليه تلك الحقيقةُ العلمية الفاصلة، التي جعلتْ خصائصَ كُلِّ نوعٍ مرتبطةً بخصائصِ النطفةِ وعَدَدِ عُرَاهَا اللونيةِ؟

ومن هنـا ندرك الفـرقَ الكبيرَ بين الحقيقـةِ العلمية التي فَصَلتِ القولَ، وبين التقدير النظري والافتراض الخيالي الذي أخـذ بَرِيقُـه بأبصـارِ كثيرٍ مِمَّنْ لم يحذقوا النقدَ، وينفذوا إلى حقائق الأمور!

وبعدَ دَحْضِ هذه الشبهةِ علمياً، يجد العاقلُ على عكس ما تَخَيَّلَ «دارون» أنَّ هذا التلاؤُمَ بين كُلِّ مخلوقٍ وبيئتهِ، وبين حواسه وتأمين حاجته، دليلٌ قوي على وجودِ الخالق الذي أَعْطَى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى، ونداءٌ صارخ يدل على الخَلاَّقِ العظيم، بذلك الخَلْقِ والتدبير والانسجام، لكي يُوَفِّرَ للكائنِ الحَيِّ أسبابَ البقاء والاستمرار.

٢ـ **وأما تَشَابُهُ الكائناتِ الحية** وتَوَهُّمُ أنه دليلُ تَطَوُّرِهَا جميعاً من أصلٍ واحد فمردودٌ بما يلي:

أ ـ من المُتَّفَقِ عليه عند الجميعِ أنَّ الأحياءَ كلها نشأت من الأرضِ فَأَصْلُها جميعاً الماءُ والترابُ، وإطارها الجامعُ الحياةُ الحيوانية، فإذا اتَّحَدَتْ في الأصل والمادة التي نشأتْ منها، واشتركتْ في قوانينَ حيوية عامة، هَلْ يكونُ من الغرابةِ والعجب أنْ تتشابه؟

إنَّ العجبَ كُلَّ العَجَبِ ألا تتشابه. ولو أدرك ذلك (دارون) لما جَنَحَ إلى الاستنتاج بأنَّ تشابهها دليلٌ على تطورِ بَعْضِهَا من بعض.

إنَّ التشابه راجعٌ إلى المنبتِ الواحد: الماء والتراب، والإطار الواحد: الحياة الحيوانية، كما هو ظاهر، لا إلى افتراضِ تَطَوُّرِ كائنٍ إلى آخرَ بغيرِ دليلٍ إلاّ بمجرد الزَّعْمِ والخيالِ الشِّعري.

ب - إنَّ التشابه بالصُّوَرِ لا يدلُّ على تَوَلُّدِ إحداها من الأخرى إلا في خيالِ الرجلِ السطحي، أو الفكرِ المحدود، وقد ضرب بعضُ العلماء لذلك مثلاً فقال: إن ملاحظة (العَرَبة) والسيارة والقطار، وما بينها من تشابهٍ في العَجَلاتِ والهياكلِ والمحركات، وما يَرْبِطُ بينها من قوانين، تجعلُ الساذجَ الغبيَّ يقول: إنَّ العربةَ وَلَدَتْ (ولادةً حقيقية) السيارةَ، والسيارة ولدت القطار، فأصلُ المركباتِ واحدٌ وقد اختلفتْ بالتطورِ إلى أنواعٍ حسب الحاجةِ والبيئةِ بذاتها وبنفسها بدونِ مُؤَثِّرٍ خارجي.

بينما يقولُ العاقِلُ الحاذق: إنَّ تطويرَ المركبات كان بمؤثرٍ خارجي وبتدبير عاقل، وبهندسةٍ دقيقة أدَّتْ إلى صنع مركباتٍ مختلفة ذاتِ أصنافٍ متباينة، ولم تَلِدْ إحداها الأخرى[1] حتى إنه

---

(١) بحافز داخلي.

إذا لم يستطع النفوذَ إلى هذا التحقيق، رأى بأُمِّ عينه وبخالِصِ حِسِّه أنه من المستحيلِ على عَرَبَةِ الخشبِ والحديدِ أنْ تَعْقِلَ وتُدَبِّرَ، وتُغَيِّرَ بذاتها وتُبَدِّلَ، وتُنْتِجَ أنواعاً وأصنافاً حسب الحاجةِ والطلبِ في غائيةٍ معينة، وخطةٍ مرسومة! تماماً كالخلية الحيوانية أو النباتية يستحيلُ عليها أنْ تعقلَ، لكي تغير النوعَ وتُنْشِئَ الفصائلَ وتسيرَ في غائيةٍ معينة، وصراطٍ لا يَحِيد.

جـ ـ إنَّ اشتراكَ الكائِنَيْنِ بنوعٍ واحد من الأعضاء، أو الأجهزة والأجزاء، (كالزائدة الدودية، والجفن الثالث، وعضلات الأذن) لا يَدُلُّ على تَوَلُّدِ أَحَدِهِمَا من الآخر، وذلك لِحُجَّتين قاطعتين:

أولاهما: أنَّ لكلِّ عضوٍ من هذه الأعضاء التي ضربوها مثلاً وظيفةً نافعة عند الإنسان، ولم تُخْلَقْ عَبَثاً كما زَعَمُوا، وقد تكون وظيفةً ثانوية يمكن الاستغناءُ عنها، وليست أساسية لا تستمرُّ الحياةُ بدونها، والدافعُ إلى ذلك كمالُ خَلْقِ الإنسان.

فكلما تكاملَ الكائنُ الحَيُّ، برَزَتْ في خَلْقِه عنايةٌ فائقة، حتى في الثانويات من الأمور، ولو لِمَحْضِ الراحة الجسدية، أو الصورةِ الجَمَالية، وهذا ما ينطبقُ على تلك الأعضاءِ

المضروبةِ مثلاً، فالزائدةُ الدودية لوحةٌ بَلْغَمِيَّةٌ تَزيدُ في الدفاع عن الأمعاء، والجَفْنُ الثالثُ يَهَبُ نوعاً من الوقاية الباطنة لِمُوقِ العين، وعضلاتُ الأذن يمكنْ أنْ يكونَ لها دورٌ هام أثناء التَّخَلُّقِ في الـرَّحمِ، في نَصْبِ صيوان الأذن وجعله بهـذه الصورة الجميلة، بدلاً من أن يكون مُتَدَلِّياً منحرفاً.

وهكذا تجد أنك كلما تَتَبَّعْتَ عضواً من الأعضاء بالروحِ العلمية، والتَّحَرِّي الدقيق، وجدتَ الحِكْمةَ من خَلْقِه، قبل أنْ تَتَسَرَّعَ وتجري وراءَ الخيالِ أو الاحتمالِ دعماً للفرضية التي افترضْتَها ابتداءً بغير برهان.

وأخـراهمـا: أنَّ في الـرَّجُـلِ أعضاءَ أُنثوية تشبهُ أعضاءَ المـرأة، وفي المـرأة أعضاء ذكرية تشبه أعضاءَ الرجل، فهل انقلبَ أحدهما عن الآخرِ؟

إننـا نجد في الرجلِ ثديين ومهبلاً صغيراً يُدْعى (المهبل الذكري Vagin Masculin) فهل كانَ الرجلُ امرأة؟

ونجد في المرأةِ عضواً يشبه عضو الذكورة عند الرجل هو (البظر Clitoris) فهل كانت المرأةُ رجلاً؟

والالتفاتُ إلى مثل هذه الأعضاء البارزة التي لا تحتاجُ إلى

التشريح، أهَمُّ من الالتفاتِ إلى الجفن الثالث والزائدة الدودية! وقد ثَبَتَ لكَ أنه التفاتٌ بغير جدوى، وأن هذه الحقائقَ العلمية تُظْهِرُ بوضوح أنَّ الأصلَ الذي بنى عليه (دارون) في هذا المجال باطل، وأنَّ مُجَرَّدَ وجودِ العُضْوِ في كائنين، وخُلُوِّهِ من الوظيفةِ في أحدهما ليس دليلاً على تطورِ أحَدِهِمَا من الآخر.

٣ـ وأما تطور الجنين في الرحم، فاستنتاجُهم من ملاحظته، مردودٌ بما يلي:

أ ـ إنَّ حَمْلَ بداية خَلْقِ الإنسان على تطورِ الجنينِ في الرحم، لا يَعْدُو التصورَ والاحتمالَ، ولا يُعْطي القَطْعَ والجَزْمَ كبقيةِ البراهين العلمية، ذلك أنه يمكن أنْ تكونَ أسبابُ الخَلْقِ الداعية إلى التكاملِ في الرحمِ غير الأسبابِ الداعية إلى الخَلْقِ في الحياة المائية الترابية، ذلك أن الفُروقَ كثيرةٌ وكبيرة وباديةٌ لِلْعيانِ، فكيف يُقَاسُ الأول على الثاني والشروطُ والأسبابُ مختلفةٌ غاية الاختلاف؟

فأينَ في بدايةِ الخَلْقِ النُّطْفَةُ والبييضة، وجوفُ الرحم وأغشيته، ودَمُ الأم والحياة المتدفقة فيه؟

أينَ كُلُّ هذا من ماءٍ وترابٍ وجَهْلُنَا بما يُحيطُ بهما من أسباب، إلّا إذا كانت أحكامُنَا عليها رَجْماً بالغيب وسعياً إلى السراب!

الحقيقة أنَّ التبايُنَ واضحٌ، فالقياسُ فاسد.

ب - في حالةِ الإصرارِ على هذه الصورة الخيالية المُغْرِيةِ من زَعْمِ التشابه بين الحالتين، نقولُ للمُعَانِدِ: وهل يُسْتَنْتَجُ من ذلك عقلياً ومنطقياً أكثر من أنَّ الإنسانَ خُلِقَ بالتدريج ولم يُخْلَقْ طفرةً بصورتهِ الحالية؟

إنَّ الفرقَ كبيرٌ جداً وخطير جداً بين قولنا: إنَّ الإنسان انتقل من مرحلة إلى مرحلة في نموه ومن صورةٍ إلى صورة حتى وصلَ إلى صورته النهائية المعروفة، وبين قولنا: إن جميعَ الأحياءِ أصْلُهَا واحدٌ، وقد انحدرَ بعضُها من بعضٍ في مراحلِ التطورِ ومن جُمْلَتِهَا الإنسان.

إنَّ ملاحظةَ التطورِ في الرحم لا تلقى في الذهن أكثرَ من الاحتمالِ الأول على سبيلِ الافتراضِ والتصور، وليس فيها قطعاً ما يَدُلُّ على اتصالِ جميعِ السُّلالاتِ بأصلٍ واحد.

فالاستنتاجُ الثاني الذي زَعَمَهُ (دارون) وأنصارُه لا سَنَدَ له في هذا الاستدلال كما هو واضح.

وإنْ أَصَرَّ أُناسٌ على الاستنتاجِ التدريجي ورأوا فيه صورةً خيالية لا تُطَاوِعُهم أنفسُهم للإعراضِ عنها، قلنا لهم: إنَّ ذلك مُمْكِنٌ، وإنْ لم يكن لدينا البرهانُ العلميُّ القَطْعي على إثباته ولا الدليلُ التاريخيُّ الجازم، ولكنَّ العقلَ لا يحيلُ أنْ تكونَ بدايةُ خَلْقِ الإنسان قد مَرَّتْ بأطوارٍ ومراحلَ عديدة وزمنٍ لا نستطيعُ تحديده حتى وصلتْ إلى الصورةِ البشريةِ الكاملة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤].

وليسَ في الدِّينِ ما يمنع من ملاحظةِ الأسباب، وأنَّ الخالقَ فَطَرَ الكونَ على الأسبابِ، والمؤمنُ لا يَفرُّ من الأسبابِ ظناً منه أنها تُنَازِعُ الخَلَّاقَ العظيم، لأنه يُدْرِكُ بوضوحٍ أنَّ الأسبابَ هي من صُنْعِه وتَدْبيره، ومقهورةٌ لِحُكْمِه، وفي دائرةِ مُلْكِه، وقد جعلها مجالَ الخلق والتصوير، لذلك فالمؤمنُ الذي يلاحظُ ذلك، لا يستعصي عليه ـ على سبيلِ الاحتمال لا القطع ـ أنْ يَتَصَوَّرَ تَسَانُدَ الأسبابِ الطبيعية في بداية الخَلْقِ، وتَتَابُع المراحلِ، حتى تسيرَ بالمخلوقِ البشري إلى صورته الإنسانية

الكـاملة، ولكنَّ ذلـك كله لا صِلَةَ له البتـةَ بأصنـافِ الأحياء الأخـرى، لاستحالةِ انقلابِ النوع، وتَبَدُّلِ الجنس، ولعدمِ قيامِ أيِّ دليلٍ على ذلـك، فالزعمُ مردود بالدليل الإيجابي ـ (استحـالة انقلاب النوع) وبالدليل السلبي: (عدم الدليل في الـرحم وغيره على انقـلابِ السـلالـة، أو تطورَ الفصيلة) أمـا تطوراتُ الأشكـالِ والـظواهر فلا تُغْني شيئاً وليست تبدلاً في النوع كما أسلفنا، وغاية ما يمكن أن يستنتجه المُصِرُّ على رأيه في هذا المجال ـ المجال الرحمي ـ هي أن بقية الأحياء سار كُلُّ صنفٍ منها في طريق التطور منذ بداية بذرتهِ الأولى حتى وصلَ إلى مرحلة من الخَلْقِ قَرَّرَتْ شكله ونوعه، فإنْ طرأ عليه تغييرٌ في المستقبـل فهو في حدودِ الظواهرِ فقط تَبَعاً للحاجةِ والظروفِ المحيطةِ بالكائنِ الحي، كما بَيَّنَّا من قَبْلُ.

ونحنُ لا نستبعد أنْ يكونَ (دارون) قد اطلع على وصف تكـوينِ الجنينِ في الـرحم كمـا وصفه القرآن الكريم: ﴿فإنا خلقناكم من تُرابٍ ثُمَّ من نُطْفَةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقة لِنُبَيِّنَ لكم ونُقِر في الأرحامِ ما نشاء﴾ [الحج: ٥].

واطلع على ما رواه بعض المفسـرين حول قوله تعالى:

﴿هل أتى على الإنسانِ حِينٌ من الدَّهْرِ لم يَكُنْ شيئاً مَذْكُورا﴾ [الدهر: ١].

وغيرها من الآيات الكريمة.

وأنَّ آدمَ لبث أزماناً طويلة بين الماءِ والتراب، فَصَوَّرَتْ له هاتان الملاحظتان القولَ بالتطورِ، فأضافَ إليها ملاحظته عن الحيوانِ، فَشَكَّلَ من مجموعِ ذلك فَرَضِيَّةَ التطورِ وألقاها إلى الناس، فأخطأَ وأصابَ، إنه أصابَ بانبعاثِ جميعِ الأحياءِ من الماءِ والترابِ وهذا الذي جاء به القرآن منذ قديم الأزمان ﴿واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ من ماء﴾ [النور: ٤٥] وخَطَرَ له على سبيلِ الاحتمال تَطَوُّرُ الكائنِ البشريِّ الأول وسيره في عدةِ مراحلَ حتى وصلَ إلى الصورةِ البشريةِ الكاملةِ ولكنه أخطأَ في زَعْمِه أنَّ جميعَ الأحياء أصْلُها واحدٌ وتطورت من خليةٍ واحدة، فلا دليلَ له على ذلك، والدليلُ العلمي يُنَاهِضُه ويَرُدُّ زَعْمَهُ.

وأما ما ذكره في هذا الصدد من العثورِ على جماجمَ بشرية تُشبه جماجم القُرودِ، فمردودٌ لعدةِ احتمالات:

أ ـ يحتمل أنْ تكونَ تلك الجماجمُ جماجمَ قرود حقيقة،

وفصائلُ القرودِ كثيرةٌ ومنها أنواعٌ قريبةُ الشَّبَه بالإنسان تشريحياً، ومعالمُ التشريح في العظام دقيقة جداً بحيث يَعْسُرُ التفريقُ خصوصاً بعد تَقَادُمِ الزَّمَنِ وتأثرِ العظامِ بالأرض.

ب ـ إنَّ الأزمنةَ المُفْتَرضة عند (دارون) لتحقيق فَرَضيته بتطورِ الفصائلِ والأنواعِ بعضِها إلى بعضٍ، أزمنةٌ متطاولةٌ بعيدةٌ جداً، وفي هذه الحال تصبحُ تلك الجماجمُ المزعومةُ والتي تُشَكِّلُ حلقةً متوسطة ـ بافتراضِه ـ رميماً لا يدرك مهما كان نوع التربة التي دفنت فيها، فأين يقومُ مثل هذا الزعمِ والتصور؟

جـ ـ لقد سبق أنْ بَيَّنَّا أنَّ مجردَ التشابه ليس دليلاً علمياً على انبعاثِ نوعٍ من نوع، وتَوَلُّدِ فَصيلةٍ من فصيلة، وأنه استنتاجٌ فاسد.

د ـ إن كثيراً من نتائجِ الحَفْرِياتِ التي نُشِرَتْ على العالم ـ عدا أنها لا تتمتعُ بالصفةِ العِلْمية والضبطِ الدقيق ـ أثبتَ الواقعُ خطأها، وتراجعَ أصحابُهَا عن الأحكامِ التي بنوها عليها مما يَتعلَّقُ بتاريخِ وجودِها، وتحديدِ صفاتِ كائناتها، وكان الفرقُ عظيماً بين التحديدِ الزمني الذي يَدَّعُونَهُ وما يَتْبَعُه من نتائج ترتبطُ بقضيةِ التطور، وبينَ التاريخِ الحقيقيِّ الذي اكتشف

بقرائن أخرى فيما بَعْدُ، لذلك فالعلمُ القَطْعِيُّ غير الظن والتخمين.

٤ ـ وأما قضية الحوافز الداخلية التي استندَ إليها «دارون» ليستمر في فَرَضِيَّتِه، والتي لولا افتراضها، لا يمكن أنْ تَطَّرِدَ الفَرَضيةُ أو تقومَ على قدميها، فهي القضيةُ التي فَضَحت الفَرَضية، وقَوَّضَتْ بُنْيَانَها، وما نحسبُ أنَّ المُعَانِدَ مهما عاندَ وتَعلَّقَ بالخيالِ والاحتمال يستطيع أنْ يتعلَّلَ بالباطلِ والمحال!

قيل «لدارون»: كيف حدث الترقي في الكائناتِ الحية؟ ولماذا حدث؟ ولماذا بقيت أنواعٌ وبادَتْ أنواع؟

فَزَعَمَ أنَّ الترقي حَدَثَ (بحوافز داخلية) وأنَّ البقاء كان للأصلح والأقوى نتيجةَ صراعٍ دائمٍ بين الأحياء.

فانظر إلى الأخطاء المتلاحقة:

أ ـ إنه افترضَ حوافزَ داخلية (بدونِ دليل) ولو أنَّ حَقَّ الافتراضِ بدون دليل أمرٌ سائغ علمياً، لَصَحَّتْ كُلُّ نظريةٍ في العالم، حينما يَنحتُ لها صاحبها حجرَ الأساس الذي يريده ويفرضه على الناسِ فيبني عليه القصورَ الشامخةَ ولكن ذلك

البنيانَ الشامخَ سرعان ما ينهار بانهيارِ أساس المفترض لأنه افتراضٌ بغير حق.

ب ـ إنَّ الحوافزَ الداخلية في حال تَصَوُّرها، لا يملكها إلا العاقلُ المدرك، حيث يبعد النظرَ، ويرسمُ للمستقبلِ، ويَصْطَفِي ويطرح، وأنَّى هذا للخليةِ التي لا تعقلُ ولا تدرك؟ وقد بَيَّنَّا ذلك حينَ الكلامِ على جَذْرِ النباتِ وعَمَلِ الخلية، وأوضحنا ثمة أنَّ ذلك الاصطفاءَ الهادف، والإتقانَ الدقيق، دليلٌ على اليدِ الهاديةِ الخَلَّاقة المُبْدِعَةِ المُصَوِّرة التي تسيرُ بالخلايا نحو أهدافٍ معينة بها يُعْمَرُ الكون: من ذلك تسليحُ بعضِ البذورِ بأجنحةٍ لتطيرَ في الهواء فتقطعَ آلافَ الأميالِ لتجدَ الماءَ فيبقى النوع. ومن ذلك تسليحُ بعضِ البعوضِ بأكياسٍ هوائية لتطفو على الماء ولا تغرق ليبقى النوع، فهل للبذور والبعوض عقلٌ يدرك، ودماغٌ يُفَكِّر، وإلمامٌ بقانون (أرخميدس)؟ لكي يقال إن الدافع إلى ذلك حافز داخلي!

ومثلُ هذه الحوادثِ الحيويةِ كثيرٌ جداً يفوقُ الحصر، في مجالِ النباتات، والحيواناتِ من الأسماكِ والطيورِ والنمل والنحل، مِمَّا يعجزُ التصورُ عن الإحاطةِ به، ويفرضُ وجودَ اليدِ

الخَلاَّقة المُبْدِعةِ، وأنه تدبيرٌ من عليمٍ حكيم.

جـ- لو أنَّ زَعْمَ التَرَقِّي بالحوافزِ والصراعِ لبقاءِ الأقوى، صحيحٌ.

فلماذا ينشأُ الحصانُ من الحمار، مع أنَّ الحمارَ أكثرُ جلداً وأشَدُّ احتمالاً؟

ولماذا ينشأُ الغزالُ من الوَعْلِ، مع أنَّ الوعلَ أقوى وأشد؟

ولماذا ينشأ الفراشُ الرقيقُ الجميل، من الزّنبورِ القويِّ الغليظ؟

ولماذا تنشأُ العصافيرُ والبلابلُ، من النُّسُورِ والصقور؟

ولماذا ينشأ الإنسانُ الضعيفُ بجسمهِ، من الحيوانِ الأقوى جسماً والأشد خلقاً؟

إن طفل الإنسان البالغ من العمر شهراً لا يستطيعُ الزحفَ على الأرض. بينما يستطيعُ المهرُ البالغُ شهراً من العمر أن يمشي عشراتِ الكيلو مترات وراءَ أُمه؟ فأين تُمْسِي هنا حقيقةُ التطور والترقي بالحوافزِ الداخلية وزَعْمِ البقاء للأقوى؟!

الحقيقة أنَّ مثلَ هذه الحقائق العلمية الواقعية تنسف زَعْمَ

البقاءِ للأقوى، وزَعْمَ الحوافز، من الأصل، وبذلك تنقض بنيان فَرَضية (دارون) من الأساس، لأنه مستحيلٌ على الفرضية أن تستمر أو يكون لها هيكلٌ بدون الاستنادِ إلى افتراضِ الحوافزِ وزَعْمِ البقاء للأقوى؟!

ومَنْ دَقَّقَ النظرَ في هذه الظواهرِ الحياتيةِ للكائناتِ الحية يدرك بوضوحٍ أنه إبداعٌ من خَلاَّقٍ عظيم عليم تَجَلَّى في غائيةِ الجمالِ في خلقِ الغزالِ والفراشِ والطيورِ والزهور في ألوانها وأشكالها وتغريدها وأريجها، مما ليس له علاقةٌ بالقوةِ والغِلْظة والغَلَبة، بل مما يعاكس تلك النظرة ويصادمها. وتَجَلَّى في غائيةِ تنويعِ المخلوقاتِ منذ البداية من نباتٍ وحيوانٍ وإنسان، ليتكاملَ العالَمُ في صورته ومعناه، وتَجَلَّى في غائية الخِدْمةِ وتسخيرِ الكائنات بعضها لبعضٍ ليعمر الكون، بتدبيرٍ هادفٍ من عزيزٍ عليم، وحِكْمةٍ بالغةٍ من عليمٍ حكيم، ولعل ذلك يُذَكِّرُنَا بالآيةِ الكريمة: ﴿لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، والآية الكريمة: ﴿والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لِتَرْكَبُوهَا وزينةً ويَخْلُقُ ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨]. ﴿ومِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ [الذاريات: ٤٩].

د ـ إن افتراضَ الحوافزِ كان عند (دارون) هَرَباً من حقيقةٍ جائمةٍ على الكونِ بارزةٍ في العقولِ بروزَ الشمسِ ألا وهيَ الإقرارُ بخالقِ الوجودِ، تلك الحقيقةُ التي قَدَّمْنَا البحثَ عنها في البداية (اذكر القاعدةَ الأولى)، فَتَجَاوُزُ (دارون) إياها أَوْقَعَهُ في خطيئتين: غَفْلَتُه عنها وافتراضُ الحوافز.

والخلاصةُ من هذا النقد لفرضيةِ (دارون) نُجْمِلُهَا في ما يلي:

١ـ من المُتَّفَقِ عليه أنَّ جميعَ الأحياءِ نشأت من الماءِ والترابِ ونبتت من الأرض بتفصيلٍ يَتَّضِحُ لنا حيناً، ويَخْفَى علينا بعضُه حيناً آخر، ولنذكر الآياتِ الكريمة التالية:

﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ من الأرضِ نباتاً﴾ [نوح: ١٧].

﴿واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من ماء﴾ [النور: ٤٥].

﴿إنِّي خالقٌ بشراً من صَلْصَالٍ من حمإٍ مَسْنُون﴾ [الحجر: ٢٨].

﴿ولقد خَلَقْنَا الإنسانَ من سُلالةٍ من طِين﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿وجعلنا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٢ـ أخطأ (دارون) في ظنه أنَّ التلاؤُمَ الظاهريَّ مع البيئةِ دليلٌ على الانقلاب الصميمي في أصلِ الخِلْقَةِ، فقد ثَبَتَ علمياً أنَّ النوع لا ينقلب إلى نوعٍ آخر إلا بانقلاب بنية النطفةِ وتغييرِ عدد عُرَاهَا اللونية (Chromosome) التي تُعَيِّنُ النوع، والنظر في ما تشتمل عليه العرى اللونية من (الجينات) التي تحمل صفات الوراثة. أما التغيراتُ الخلوية الظاهرية فلا علاقةَ لها بتغييرِ النوع البتة.

٣ـ أخطأ (دارون) في زعمه أن التشابه في الكائنات الحية دليلُ انحدارِ بعضِها من بعضٍ (فالعرباتُ) المتشابهةُ ببعضِ المظاهر والأجزاء، لم يَلِدْ بعضُها بعضاً. وإنما هيَ يَدُ الخَلاَّقِ العليم يُنَوِّعُ في خَلْقِه فيتشابه الخَلْقُ حيناً ويختلفُ حيناً آخر ﴿يَزِيدُ في الخَلْقِ ما يشاء﴾ [فاطر: ١). وكُلُّ زمرةٍ من المخلوقاتِ تجتمعُ في إطارٍ واحد لا بُدَّ أنْ تتشابه في بعضِ الصفات.

٤ـ أخطأ (دارون) في بناء فَرَضيته على ملاحظةِ تَطَوُّرِ

الجنين في الرحم للفروقِ الكبيرة بين المَقِيسِ والمقيسِ
ولأنَّ مثلَ ذلك لا يدلُّ على أنَّ أصلَ جميعِ الأحياء واحد فالموضوعان منفصلان وغايةُ ما يقال على سبيلِ الاحتمال أنه من الممكن أنْ يكونَ خَلْقُ الإنسانِ الأولِ قد مَرَّ بمراحلَ من التطور لا نستطيعُ تحديدَ مُدَّتها كالمراحلِ التي يَمُرُّ بها في الرحم اليوم والفارق أنَّ الرَّحِمَ حينذاكَ كان بقعةً من الأرضِ هَيَّأَ فيها الخالقُ المُدَبِّرُ المالكُ للأسبابِ المعيِّنُ للهدفِ، الشروطَ الضرورية اللازمة لِتكوين ذلك الحيّ ووصولِه إلى أحسنِ تقويم، وأنَّ كُلَّ بذرةٍ من بذورِ الأحياء الأخرى سارتْ أيضاً في طريقِ التطورِ حتى وصلتْ إلى تحديدِ نوعها كُلٌّ بمعزلٍ عن الأخرى.

٥ـ أخطأ (دارون) في افتراضه (الحوافز الحياتية، وبقاء الأقوى) فليس له حَقُّ الافتراض، والحوافزُ الهادفةُ لا تَعِيها الخليةُ، إذْ لا تعقلُ ولا تدركُ، وأثبتَ العِلْمُ والواقعُ أنه لم يكن البقاء للأقوى فقط، بل كان البقاء والاستمرار أيضاً للأضعفِ والأجملِ، والتنوعُ المقصود الذي تَتِمُّ به صورةُ الحياة ومعناها. والحقيقة أنَّ مُجَرَّدَ نَقْضِ افتراضِ (الحوافز الداخلية) التي تفتقرُ إليها الفرضية، كافٍ لنقض الفرضية ذاتها من الأساس.

وما كان ليُكتبَ لهذه الفرضية الذيوعُ والانتشار، لولا ولُوعُ هذا الجيل بكل جديدٍ ولو لم يكن صحيحاً، والنُّفْرَةِ من كُلِّ قديمٍ ولـو كان سديداً رشيداً، حتى نشأ في المجتمع مفهوم (الرجعية) و(التقدمية)، وأصبح الشاب يَجْبُنُ أحياناً عن قولِ الحق خوفـاً من وصمة (الرجعية) أو ينزلق في الباطل، تقليداً أعمى، لِيُوصَفَ (بالتقدمية)، دونَ نَقْدٍ نزيه، أو نَظَرٍ مجرد!

وبعـــد أن عرضنـا لتفنيد الـزعم بأنَّ الحياةَ نشـأت على الأرضِ من جراثيم هبطت من الكواكب، وكشفنا بطلان فرضية (دارون)، وأزَلْنَا الغشاوةَ عن عينِ مَنْ يَتَوَهَّم من النظر في تجربة أوراق (التنباك) وما يُشْبِهُهَا أنَّ الحياةَ يمكن أنْ تنشأ بغير خالق، حتى أصبحت تلك الحقيقـةُ العلمية العـظيمة دليلاً واضحاً، وبرهاناً قاطعاً على إمكان عودةِ الحياة إلى الميت، وهو الأمرُ الذي كان ينكره الجاحدون، ويتمسكُ به الجاهلون، ويَتَعَلَّلُونَ به للقولِ بالنفاد، واستحالةِ عودةِ الحياة، فنقضت هذه الحقيقةُ مزاعمهم، ورَدَّتْهُمْ على أعقابهم خاسرين.

ومن هنا يتبين للقارىء الكريم أن الأصلَ استمرارُ الحياة، وتجـددهـا وتكـرارها. والقولُ بالنفاد هو قولُ الجاهل الذي لا

يعـرفُ الحقائق العلمية وليس له نَظَرٌ عميق في أسرارِ الخَلْق والبعث والنشور ﴿يَعْلَمُون ظاهراً من الحياة الدنيا. . .﴾ وهذا يذكرنا بقول (المعرِّي):

خُلِقَ النـاسُ للبقـاء فظلت أمــة يحسبــونـهم للنفــاد

وبعد اطلاعك على هذه الأسرارِ الدقيقةِ في قصة الحياة، والحقائق العلمية الدامغة تدرك الفرق الكبير بين عُمْقِ الفكر وقـوة العقـل لدى المؤمن بالله واليوم الآخـر، وبين السـطحية وضَعْفِ العقل لدى الملحد الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وقد وصف القرآن الكريم هذا الصنف من الملحدين بأنهم لا يعقلون ﴿. . . ويجعل الرِّجْسَ على الذين لا يعقلون﴾.

ومن العجيب اليوم أن تظهرَ هذه الصفات من قوة العقلِ وضعفـه معكـوسـة، فيتغنَّى الملحدون بقوةِ العقل والعلمانية (انتساباً إلى العلم)، وينعتون المؤمنين بضعف العقل والبُعْدِ عن الحقائق العلمية، وذلك من الزُّور والبهتان وقلْب الحقائق، وقــد خَفِيَ الأمــرُ علــى كثيرٍ من الناس، وهو من التلبيس والتدليس.

بقي هنا بعد هذا البيان العلمي، والتفكير المنطقي، أن

ننتقل بالقارىء إلى الحقائق التاريخية العظيمة التي تشير إلى عودة الحياةِ إلى البشر في هذه الحياة الدنيا وإلى بعض الخوارق التي تؤكد الإيمان بالله واليوم الآخر. ولا شك أن العاقل المُنْصف البعيد عن المراء والمعاجزة، يؤمنُ بالحقائقِ التاريخية التي بلغت حَدَّ التواتر، ويأخذ منها الموعظةَ والبرهان. ولا يسعه تجاهلها ونكرانها. ورد في الإنجيل والقرآن، أنَّ المسيح عليه السلام أحيا الموتى بإذن الله ﴿.. وإذْ تُخْرِجُ الموتى بإذني...﴾ الآيات، وهذا من وجهة النظر التاريخية دليلٌ قطعي على إمكان عودة الحياة إلى الأشخاص بأعيانهم، ولما اشتهر هذا الأمرُ عن المسيح عليه السلام فُتِنَ به أناسٌ حتى جعلوه إلَهاً، وعلى الرغم من أنها دعوى باطلة، وكفرٌ بوحدانية الخالق الأعظم، إلّا أنها تشيرُ صراحةً إلى ثبوتِ حادثة إحياء الموتى على يد المسيح، تلك الحادثةُ العظيمة التي بهرت عقولَ فريقٍ من الناس إلى درجة الانحراف والوقوع في الكفر وما زالوا. ولولا ثبوتها لدى الناس جيلاً بعد جيل وبتواتر لا يمكن إنكاره وبشهادة كتب السماء لما صَحَّ إثباتها أو الاستشهاد بها. ووقع مثل ذلك للخليل إبراهيم عليه السلام - في إحياء

الحيوان ـ وقد جاء ذِكرُ ذلك في القرآن الكريم: ﴿وإذ قال إبراهيم رَبِّ أَرني كيف تحيي الموتى...﴾ ووقع مثل ذلك لموسى عليه السلام مع بني إسرائيل: ﴿فلما أخذتهم الرجفة قال رَبِّ لو شئتَ أَهْلَكْتَهُمْ من قَبْلُ وإيَّايَ﴾. ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ [البقرة: ٥٦].

ومن الخوارق الدالة على الخالق الأعظم ما وقع له عليه السلام من شَقِّ البحر بعصاه، وقد ورد ذلك في التوارة والقرآن: ﴿... أن اضربْ بعصاكَ البحرَ فانفلقَ فكان كل فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم...﴾ فهل بمقدور البشر أن يفعلوا ذلك لولا قدرةُ الله التي أكرمهم بها في هذه المجالات؟!

ومن الخوارق العظيمة أيضاً ما جرى على يد نبينا ﷺ من انشقاق القمر حين طلبت منه قريش ذلك، وهذا ما أشار إليه القرآنُ الكريم صراحة: ﴿اقتربت الساعة وانْشَقَّ القمر﴾ فقد انشق القمر حينذاك وشاهدته قريش وجموع من الناس. ورأوا فلقة من القمر قد انفصلت عنه وما زالت تنحدر حتى توارت وراء الأُفق، وقد جاء اكتشافُ القمر اليومَ ـ علمياً وحسِّياً ـ يشيرُ إلى

أنَّ القمـرَ ليس كرةً كاملة من كل الـوجـوه، بل هو من الجهة الأخرى التي لا تقابلُ الأرضُ مقطوعٌ بشكلٍ واضح دالٍ على انفصال قطعةٍ منه في مرحلة من الزمان. وتلك المرحلة أشارت إليهـا بعض الحفـريات الحـديثة التي حدثت في الصين في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن حيث أعلنوا أنهم عثروا على صخـرةٍ محفـور عليهـا أنهم رأوا القمر قد انشق فلقتين بتاريخ كذا فلما قُورن التاريخُ بما يقابل تاريخنا وُجد أنه زمن البعثة النبوية مقارناً لتلك المعجزة العظيمة.

هذا وأمثـاله الكثير في تاريخ النبوات مما اشتملت عليه الكتبُ المقدسة يشير صراحةً إلى قدرة الخالق الأعظم والتي أجراها معجزات على أيدي أنبيائه ورسله، ومن جملتها إحياء الموتى، ففي تلك الحقائق التاريخية دعم وتأكيد لما ذكرناه عن إحياء الموتى والنشأة الأخرى، فثبت ذلك علمياً وتاريخياً كما يرى القارىء الكريم.

المصَادفـــةَ

يلعبُ القـولُ بالمصـادفـةِ دوراً عند بعض مَنْ يتكلم في حقيقـةِ الـوجـود، ولـذلك نجدُ لِزاماً علينا أنْ نتعرضَ لحقيقةِ المصادفةِ في هذا البحث، لنرى نصيبَ هذا القولِ من الحَقِّ عنـد الذين يقولون: وُجِدَ العالَمُ مُصَادفةً، وانتظمتِ الأفلاكُ مصادفة، وجرتِ الأمورُ الحيوية والغريزية في حسابها الدقيق مصادفة. وإنْ كان العقلُ يرى بالبداهة أنَّ مثلَ هذا القول أقربُ إلى الخيالِ الصبياني منه إلى التحقيق العلمي.

يقـولُ العلمـاءُ والفـلاسفـة: لا وجـودَ ـ في الحقيقـة ـ للمصادفةِ، وإنما يقولُ بها الإنسانُ إذا جهلَ السببَ حتى إذا عرف السبب، أنكر أنْ يُسَمِّيها مصادفةً، وسَمَّاها باسمها الذي يفسـره السبب، ولذلك تجد التعليلَ بالمصادفةِ أكثر ما تجده لدى الأطفالِ، وعند الشعوبِ الابتدائية، والطبقاتِ الجاهلة، أما العالِمُ فإنه دائماً يبحثُ عن السبب، ويَنْشُدُ الحِكْمةَ، ولا

يتغافلُ عن دقةِ النظامِ وقُوَّةِ الإحكام.

ضربَ أحدُ العلماءِ مثلاً لنصيبِ الاحتمالِ في الأمر المُحْكَمِ، والنسق المنتظم، لِيَرُدَّ بذلكَ على مَنْ يسند نظامَ الوجودِ الدقيقِ إلى المصادفة، قال: لو وضعتَ عَشْرَ قِطَعٍ معدنيةٍ في جيبكَ، وجعلتها مرقومةً من الواحدِ إلى العشرة وحاولتَ أنْ تُخْرِجَها مُرَتَّبةً بحيثُ لا تخطئُ في تقديمِ عَدَدٍ ولا تأخيرِه لكان بالحسابِ احتمالُ خروجِ الرقم الذي تُريدُه، كالواحدِ مثلاً هو عشراً ($\frac{١}{١٠}$) ولكي يخرجَ هذا الرقمُ في دوره سوف يكون له احتمال $\frac{١}{١٠}$ مع كل من الأرقام العشرة

فيكون الاحتمال $\frac{١}{١٠}$ فلخروجِ قطع النقود العشرة بغير خطأ يكون الاحتمال:

$$\frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} \times \frac{١}{١٠} = \frac{١}{١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$$

أي: يكون الاحتمالُ: واحداً من عشرةِ مليارات.

وبهذا يتبينُ لكَ واضحاً من حسابِ الاحتمالاتِ أنَّ المصادفةَ في ظهورِ الأرقامِ العشرة مرتبةً، هو احتمال واحد من

عشرةِ مليارات من الاحتمالات، أي: إننا يمكن أن نُخطىء في هذه التجربةِ عشرةَ آلافِ مليونِ مرةٍ إلا واحدة لكي نُخْرِجَها مرتبةً دون خطأ.

إذا عرفتَ هذا، وعرفتَ أنَّ النُّطْفَةَ والبُيَيْضَةَ تشتملُ كُلٌّ منهما في بنيتها على أجزاء صغيرة تسمى (العُرَى المُلَوَّنة Chromosomes) لها عددٌ ثابتٌ في كُلِّ نوعٍ، من إنسان أو حيوان، بها يختلفُ النوعُ، ويتميزُ الجِنْسُ، وهي حقيقةٌ علمية لا تقبلُ الجَدَل، وعلمتَ أنه يوجدُ في كل بقعةٍ من الأرض في كُلِّ لحظةٍ ملايينُ التوالدِ المبنيِّ على عَدَدِ العُرَى اللونية الثابت، وأنَّ هذه الأعداد تتكررُ ثابتةً لدى كل كائنٍ حيٍّ على وجه الأرض، لا تخطىءُ أبداً، أيقنتَ أنه لا مكانَ للمصادفة في ذلك، بل تخجلُ حينئذٍ من القولِ بالمصادفة، وتُوقِنُ أنه تقديرُ العزيزِ العليم.

وإذا كانت القاعدةُ الرياضية في حساب الاحتمالات، أو (قانون المصادفات) تقول: (إنَّ حَظَّ المصادفة يتناسبُ عكساً مع عَدَدِ الاحتمالات المتزاحمة).

فماذا بقيَ لِحَظِّ المصادفةِ بالنسبةِ لأعدادٍ لا تتناهى،

وأرقامٍ لا تُحْصَى؟ بل أيّ الملايين تُسَاعِدُنَا على إحصاءِ عددِ التوالُدِ لدى نوعٍ من الكائناتِ الحية، حتى نستطيعَ النظرَ بعد ذلك في نجاحِ كُلِّ عددٍ منها في حساب الاحتمالات؟!

أي: إنه إذا كان الاحتمالُ بالنسبة لعشرة أرقام، واحداً من عشرة مليارات، فما عسى أنْ يكونَ الاحتمالُ بالنسبة لملايينِ الأرقام، من ملايينِ الحوادثِ، تتعاقبُ ليلَ نهار، وتجري بنظامٍ واحد لا يخطىء، وحسابٍ دقيق لا يَحِيد؟!

وهـذا كله بالنسبة لحادثةٍ حيويةٍ واحدة، فما بالكَ بالحوادثِ الحيوية، والقوانينِ الغريزية، وشروطِ الحياةِ الضرورية، في عالَمِ النباتِ والحيوان والإنسان، وما هو شأنُ قوانينِ الماء، والهواءِ، والسَّحابِ في عالم الفيزياء والكيمياء، وقوانين الجاذبية، والشروق والغروب في عالَمِ الفلك والكواكب.

ولو أنَّ عَدَدَ العُرى اللونية زادَ أو نقصَ، لانْقَلَبَ الإنسانُ حيواناً، والحيوانُ إنساناً فَتَلِدَ المرأةُ كلباً، ويَلِدَ الكلبُ طيراً، وينتج الطير سلحفاةً إلى آخرِ ما هنالك من خَبْطٍ واضطراب.

(ويصبح العالم مُضْحِكاً بعد أنْ كان نظاماً دقيقاً مُدْهشاً).

ولـو أنَّ نسبـةَ الأوكسجين والآزوت اختلفت في الهواء، لرأيتَ الحرائقَ تَعُمُّ الأرضَ، وتقضي على الحياةِ أو يستحيل الاشتعال فتفسد المعايش!

ولو أنَّ نسبةَ الهيدروجين والأوكسجين اختلفت في الماء، لما كان صالحاً للشرب، ولَقَتلَ الناسَ العطشُ!

ولو أنَّ قانون الجاذبية غير ما هُوَ عليه اليوم، لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يستقرَّ في الأرض، ولاستحالت الحياةُ. ولو اختلفت قوةُ التجاذبِ بين الأرض والقمر لاختلف المَدُّ والجزر، وغمرت البحـارُ اليابسـةَ، وقَضَتْ على الأحياءِ جملةً واحـدة. وهكذا يتسلسـلُ الخـطأ إلى غير نهـاية، ويتعددُ الفسادُ في صورٍ لا تنسجمُ مع الحياة، ولكن إتقانَ أمرِ هذا الوجود كان بعيداً ـ كما تَرى ـ عن خَلْطِ المصادفة، وخطأ الاحتمال.

وهذا هو الفرقُ بين تقديرِ العزيزِ العليم، وخطأ المصادفةِ الجسيم كما أشارتْ إليه الآياتُ الكريمة:

﴿صُنْعَ الله الذي أتقنَ كُلَّ شيءٍ﴾ [النمل: ٨].

﴿صِبْغَةَ الله ومَنْ أحسنُ من اللهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

﴿أفرأيتُمْ ما تَحْرُثُونَ. أأنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نحنُ الزارعونَ. لو

نشـاءُ لَجعلناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُون. إنَّا لَمُغْرَمُونَ. بل نحن مَحْرُومونَ. أفرأيتم الماءَ الذي تَشْربُون. أأنتم أنزلتُمُوهُ من المُزْنِ أم نحن المُنْـزِلُـون. لو نَشَـاءُ جعلنـاهُ أُجَاجاً فلولا تَشْكُرون. أفـرأيتم النـارَ التي تُورُونَ. أأنتم أنشـأتُمْ شَجَـرَتَهـا أم نحن المُنْشِئُونَ. نحن جعلناها تَذْكِرَةً ومتاعاً للمُقْوِينَ. فَسَبِّحْ باسمِ رَبِّكَ العظيم﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٤].

ولذلك وجدنا القرآنَ الكريم يَصِفُ العوالِمَ المختلفة التي ذكرنا، ويُلِحُّ على ما فيها من نظامٍ واتقان، ليطردَ من الخيالِ ظَنَّ المصادفة، وزَيْفَ الاحتمالِ، كما ورد في آيات كثيرة منها: ﴿إنَّ في خَلْقِ السمـواتِ والأرض، واختلافِ الليل والنهار، والفُلْكِ التي تجري في البحر بما يَنْفَعُ الناسَ، وما أنزلَ اللهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعدَ موتها، وبَثَّ فيها من كُلِّ دابـةٍ، وتصـريف الـرياحِ، والسحـابِ المُسَخَّـرِ بين السماءِ والأرضِ، لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ [البقرة: ١٦٤].

وهكذا تجدُ أنَّ القولَ بالمصادفة، بالنسبة لنظامِ الوجودِ الشـاملِ المُحْكَمِ، وشروطِ الحياة الدقيقةِ والإتقان العجيبِ الهادفِ لا يقولُ به إلا جاهل، بعيد عن التحقيق، أو مكابر يرى

الحَقُّ ويُعْرِض عنه، وأنه يكفي التأمُّلُ في بعض آياتِ الوجودِ بالطريقةِ العلمية حتى تزولَ (المصادفةُ) وأوهامُهَا، وتحل مَحلَّها الأحكامُ المُعَلَّلَةُ بأسبابها، ويظهر الحَقُّ لذي عَيْنَين: ﴿سَنُرِيهِم آياتِنَا في الآفاقِ، وفي أَنْفُسِهِم حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنَّهُ الحَقّ﴾ [فصلت: ٥٣].

يوم الحِسَـــاب

لا بد أنـك بعدما تَقَدَّمَ من التمحيصِ والتحقيقِ في أمرِ الوجودِ، قد رفضتَ الرِّيبيةَ، وابتعدتَ عن السفسطائية، فأقررتَ بالـوجـودِ والمـوجـودِ، والخـالقِ والمخلوقِ، وأيقنتَ بتـأثيرِ المحسـوسـاتِ، فَمَيَّزْتَ بين النفـعِ والضُّـرِّ، واللذةِ والألم، فحـرصتَ على ما ينفعُـكَ وتحـاشيتَ ما يَضُـرُّكَ ـ مع تقـديرِ العـواقبِ والنـظر إلى مصلحتـكَ ومصلحـةِ غيرِكَ ـ، وسلكتَ لذلك سبيلاً، وأردتَ من غيرك أن يسلكه معك، فإن استجاب لك، سَمَّيْتَ فِعْلَهُ عدلاً، وإنْ أبىٰ عليك، سَمَّيْتَ فِعْلَهُ ظلماً، فنشأَ عندك الأساسُ الأولُ للأخلاق! وهو التمييزُ بين العدلِ والظلم.

فالعـدلُ: ألا تَجُـرَّ ضَرراً على نفسـكَ ولا على غيرك، والظلم: تَعَمُّدُ أَحَدِهِمَا، والضررُ: ما يؤذي النفسَ مادةً ومعنى، والنفعُ: ما يُؤنِسُ النفسَ مادةً ومعنى، ومِنَ العدلِ نَشَأَ الصِدْقُ،

والأمـانـةُ، والوفاءُ. . . في جانب، ومِنَ الظلم نشأ الكذبُ، والخيانةُ، والغدر. . . في جانب آخر. وهكذا تنشأُ الأخلاقُ، ويتولَّدُ مفهومُ الخيرِ والشرِّ، ويكون الإقرارُ بحقيقةِ الخيرِ والشر لزاماً، والخضوعُ لقواعد الأخلاق حتماً، مع الإقرارِ بالنسبيةِ في الفروع ، وأثرِ تفاوتِ الزمانِ والمكانِ دونَ أنْ يطغى ذلك على الأُصولَ، والفرقُ واضحٌ بين ثبوتِ هذه الأصول التي لا يقومُ بدونها مجتمعٌ إنساني قط، وبين النسبيةِ التي أشرنا إليها، ومَنْ لم يميز الفرقَ، خَلَطَ بين الأمرين، وادَّعى النسبيةَ المطلقةَ في الأخـلاق، وهـو لم يعلم أنَّ النسبيةَ المـطلقة أساسُهَا الرِّيبيةُ المـطلقةُ، فَظَنُّهُ مردودٌ من جهتين: الجهة الأولى: غَفْلَتُه عن الفرقِ بين الأصولِ التي لا تنالها النسبيةُ والفروعُ التي تخضع للنسبية، والجهة الثانية: فسادُ الريبيةِ المطلقة الذي ذكرناه من قَبْـلُ. على أنَّ من هؤلاء مَنْ يخلطُ بين الأصـولِ الثـابتـة، والفـروع النسبية لكي يَتَفَلَّتَ من التبعةِ، ويفرَّ من التكليفِ، فَيُوهِمَ نَفْسَـهُ وغيره أنْ لا خيرَ ولا شَرَّ، ولا فضيلةَ ولا رذيلةَ، ولذلك تجده حينما تبادره: أنِ افْعَلِ الخيرَ أو اتْرُكِ الشَّرَّ، تَفْتَرُّ شَفَتَاهُ عن ابتسامةِ السُّخر، ويجيبُ إجابةَ استعلاء وتنطع، ظناً

وخيالاً: أيُّ خيرٍ؟ وأيُّ شَرٍّ؟ فانـظر إلى دقة الخدعةِ النفسية، وخَطَرِ الضلالِ الفكري، والنتائجِ السيئة البعيدة لفلسفةٍ خاطئةٍ ومُغَالَطةٍ فكرية جائرة.

ومـن طريفِ ما ذُكِـرَ حول ضرورةِ العـدلِ لقيامِ حياةٍ اجتمـاعية ما قالـه بعضهم: «لـو أن لصـوصـاً سرقـوا متاعاً، لاحتـاجـوا إلى مَنْ يقيمُ العدلَ بينهم في قسمة المتاع، وإلاّ انقضَّ بعضهم على بعض، وانفرطَ عقدهم».

فالعـدلُ ميزانٌ ضروري، لا تقـومُ بدونه حياةٌ اجتماعية، تُوزَنُ به شؤونُ النـاسِ كافـة، وعلى هذا الوزن تقومُ الروابطُ بينهم، وهـو مفهـومٌ ارتضاهُ الإنسان لنفسه، لكي لا يلحقَ به ضَرَرٌ، فوجب أنْ يعامل به غيره، وبذلك تستقيمُ الحياة بين الناس.

وإذا ثبتَ عندكَ ميزانُ العدل، وثبتَ عندك وقوعُ كثيرٍ من الجـرائمِ، لم تَصِـلْ إليهـا يَدُ العدالة: من قتيلٍ، وجريح، ومسلوبٍ، ومنكوب، في حدودِ حياةِ الأفراد؛ ومجاعةٍ أليمة، ومجزرةٍ رهيبة، وكرامةٍ ضائعة في حدود حياة الأمم، كُلُّ ذلك

بين يدي الخالقِ الأعظم، السميعِ العليم، العدلِ البصير، قلتَ:

أينَ ضاعْتِ حقوقُ الأفرادِ؟ وكيف هُدِرَتْ حقوقُ الأمم؟

أيَرضَى الخالقُ بالظلم؟ أيعجزُ الخالقُ عن دَفْعِه؟

إنَّ مَنْ رَضِيَ بالظُّلْمِ ظالم، ومَنْ لم يقدر على دَفْعِه عاجز، والصفتان في جانب الكامل المطلق مستحيلتان. (اذكر القاعدة الثانية) فهو لا يَرْضَى بالظلم، ولا يعجز عن دفعه.

ومن هنا، من ملاحظةِ وقوع المظالم، دونَ تعجيلِ العقوبة مع الإقرارِ بعلم الخالق، وقدرته، وعدله، تَحَتَّمَ الاعتقادُ بوقوعِ الجزاءِ في عالَمٍ آخر لا مَحَالة، لِيُؤْخَذَ الحَقُّ من الظالم للمظلوم.

ولكنَّ بعضَ الناس، إذْ لاحظوا وقوعَ الجريمةِ دونَ تعجيلِ العقوبةِ، ظهرَ لهم ذلك بمظهرِ العَبَثِ في الحياةِ الدنيا، فَضَلُّوا عن الحَقِّ، وجحدوا يوم الحساب، وما ذلك إلا لأنهم عالجوا هذا الأمرَ معالجةً جانبيةً، ولم يُحِيطُوا بأطرافِ الموضوعِ من كُلِّ جانبٍ، ولو أنهم نظروا في أمرِ الخَلْقِ والخالق أولاً، وثبتَ

لديهم من الأمرِ ما ثبتَ لدينا، لَمَا استعجلوا في الحكم، ولرأوا أنَّ مظهرَ المظالمِ المتقدم، الخالي من العقوبةِ، أعظمُ برهانٍ على يومِ الحسابِ ولزومِ العقابِ، انسجاماً مع الاعتقادِ بعدالةِ الخالق، وعِلْمِه وقدرته. وكثيرٌ من الخطأ في الأحكامِ يقعُ حينَ النظرِ في الفروعِ دونَ الأصولِ، وحينَ الاقتصارِ على جانبٍ دون بقية الجوانب، خصوصاً عند أدعياءِ العلمِ والفلسفةِ حينما يُصِيبهُم النَّزَقُ لاستعجالِ العقوبة، والعجبِ من الإمهال!

إذن فالانتقامُ من الظالم، وأخذُ الحَقِّ للمظلومِ واقعانِ حتماً لزاماً، وإلا نقضنا جميعَ ما قادَنا إليه المنطقُ، وأرشدَنا إليه العقلُ، وتَعَمَّدْنَا رُكوبَ الخطأ، ﴿كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قوةٍ أنكاثاً﴾ [النحل: ٩٢] فالأمرُ لا بُدَّ أنْ تُنْجِزَهُ العدالةُ الإلهية.

ولما كان ظالِمٌ ومظلومٌ، قد غادَرا هذا الوجودَ دون أنْ يُؤْخَذَ الحَقُّ من أحَدِهما للآخَرِ، فالمحتومُ إذن حسابُهما في عالَمٍ آخرَ لا مناصَ من ذلك، ولا خلاصَ. وأما قيامُ ذلك العالَمِ الآخر بالنسبة للذي أنشأه أوَّلَ مرةٍ، فَمُمْكِنٌ وهَيِّنٌ كما أشارتْ إليه بعضُ الآيات مُبَيِّنَةً هذا الإمكان، بالاستناد إلى النشأة

الأولى: ﴿وهو الذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه، وهو أَهْوَنُ عليه، ولَهُ المَثَلُ الأعلى في السمواتِ والأرض وهو العزيزُ الحكيم﴾ [الروم: ٢٧].

﴿قُلْ سِيرُوا في الأرضِ فانْظُرُوا كيفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثم اللهُ يُنْشِىءُ النشأةَ الآخِرَةَ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قدير﴾ [العنكبوت: ٢٠].

إذن فالنشأةُ الآخرةُ مُمْكِنَةٌ من حيثُ القدرةِ، لأنَّ نَفْيَ إمكانها نفيٌ للنشأةِ الأولى التي نَحْيَا بها، وإلصاق العجز بقدرةِ الخالق، الأمرُ الذي فَنَّدْنَاهُ (القاعدة الثانية).

﴿ولقد عَلِمْتُم النشأةَ الأولى فلولا تَذَكَّرُون﴾ [الواقعة: ٦٣]. وهي مصيرٌ حَتْميٌّ من حيثُ العدالة، لنفيِ الظلمِ عن الكاملِ المُطْلَق، وإعادة الحقوقِ إلى أصحابها، إذن فالإمكان متوفِّرٌ، والضرورةُ مُلْزِمَةٌ، فلا بُدَّ من يومِ الحساب.

ولقد نَعَى القرآنُ الكريم على ذوي الأفهامِ القاصرة قصورهم عن إدراكِ هذا المعنى، حيث نَسَبُوا إلى الخالِق الأعظمِ العجزَ والظلمَ، فخاطبهم بهذه الآيةِ الكريمة:

﴿أَفَعَيِينَا بالخَلْقِ الأوَّلِ؟ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ من خَلْقٍ

جديد﴾ [ق: ١٥]. فإن اعتقدوا الإعياءَ نَسَبُوا إليه العجزَ، وإن شَكُّوا في الخلقِ الجديد، نسبوا إليه الظلم! وذلك محال كما بَيَّنَّا.

واستمع الآن إلى بعضِ ما وردَ في القرآنِ الكريم من الآياتِ معللةً انبعاثَ الخَلْقِ، لإحقاقِ الحَقِّ، ودفعِ الظلمِ، فَيُثَابُ طائعٌ، ويُدَانُ عَاصٍ.

﴿يومَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيرٍ مُحْضَراً، وما عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينَها وبينَهُ أمَداً بعيداً﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿يومَ تأتي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عن نفسها، وتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عملت وهم لا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿اليومَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما كسبتْ لا ظُلْمَ اليومَ، إنَّ الله سريعُ الحساب﴾ [غافر: ١٧].

﴿فاليومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً، ولا تُجْزَوْنَ إلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ [يس: ٥٤].

ولكي يَتحقَّقَ الثوابُ والعقابُ، بالمعنى الكامل، وَجَبَ أن يكون ذلك العالم حقيقياً بالمعنى الكامل، يتمتعُ فيه الناسُ

بجميعِ خصائص الحياة، وألاَّ يكونَ ضَرْباً من الوهمِ والخيالِ، كما قد يتوهمه بعضُ الناظرين في هذا الأمر، وبذلك يكون الحسابُ دقيقاً عدلاً، وهو اللائقُ بكمالِ الخالقِ الأعظم، بحيثُ لا تَضِيعُ ذَرَّةٌ من خيرٍ أو شر، كما أشارتْ إلى ذلك الآيات التالية: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾.

﴿ونَضَعُ الموازِينَ القِسْط ليومِ القيامةِ، فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً، وإنْ كان مثقال حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿فَمَنْ يَعْمَل مِثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَه. ومَنْ يَعملْ مِثقالَ ذرة شراً يَرَه﴾ [الزلزة: ٧، ٨].

وإذا اعتقدتَ بهذا، زالَ من خيالكَ ظَنُّ القاصرين، الذين ظَنُّوا الخَلْقِ عبثاً، والوجود لعباً كما نَعَتْهُ عليهمُ الآياتُ الكريمة:

﴿وما خَلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بَيْنَهما لاعبين﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ما خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بالحَقِّ ولكن أكثرهم لا يَعْلَمُون﴾ [الدخان: ٣٩].

﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلينا لا تُرْجَعُون﴾

[المؤمنون: ١١٥].

ومن هنا تجد أنَّ (المادية الجدلية Dialectique) كما سقطتْ أولَ مرةٍ، حينما تجاهلت السببَ الأول، وقالتْ بِقِدَمِ العالَمِ، فقد سقطتْ في المرةِ الثانية، حينما جَهِلَت المصيرَ النهائي، وجَحَدت العالَمَ الآخر. والحقيقةُ أنها وقعتْ بين إفراطٍ وتفريط، فهي قد بالغتْ بالنسبة لهذا العالَم الحادث، فقالت بِقِدَمِهِ دونَ دليلٍ، بَلْ مصادمةً للدليلِ، وفي الوقتِ نفسه أغمضتِ العينَ عن ذلكَ العالَم الذي يُلْزِمُ الدليلُ بالمصيرِ إليه، وهي بين طرفي هذا الإفراط والتفريط، قد جعلت الحياةَ دونَ مغزى، فكأنها ضَرْبٌ من العَبَثِ واللعبِ، تلك سقطةٌ ثالثة.

وحين يُسَلِّمُ العاقلُ بالمصيرِ إلى يومِ الحساب، وحصولِ العقاب والثواب، يقيناً بقدرةِ الخالقِ، وتحقيقاً لعدله المحتوم، فإنه قد تَعْرِضُ له شبهةٌ، طالما تَتَرَدَّدُ على بعضِ الألسُنِ في هذا العصـر، فيقولون: إنَّ الخالقَ العظيم الرحيمَ لا يليقُ بعظمته ورحمته أنْ يُعَذِّبَنَا ويُصْلِينَا النارَ، ويجدون أنَّ إيقاعَ العذابِ أمرٌ خيالي، ودعوى باطلة تتعارُض مع الرحمةِ. ونقول:

إنَّ التورطَ في هذا الحُكْمِ يؤدي إلى التسويةِ بين العالِمِ

والجَهُولِ، والمجتهدِ والكَسُولِ، والطائعِ والعاصي، والظالمِ والمظلوم؛ والتسويةُ بين هذين الطرفين المتناقضين، ظُلْمٌ مبين، فإذا نَسَبْنَا هذه التسويةَ إلى الخالق، نسبنا إليه الظلمَ في أبشعِ صوره، وذلك مستحيلٌ، (اذكر القاعدة الثانية).

وإذا رضي الظالمُ بذلك، أَفَيَرْضَى المظلومُ؟ وإذا ساغَ ذلك عند الجاهل، أَفَيَسُوغُ لدى العاقلِ؟ وتَصَوَّرْ أنكَ أنتَ المقتولُ ظُلْماً وعُدْواناً، فَجَزَاكَ الخالقُ الذي في تَصَوُّرِكَ بِهَدْرِ دَمِكَ، والعفوِ عن قاتِلِكَ، والتسوية بينكما:

أَفَتَرْضَى أنْ تُرْغَمَ على ضياعِ حَقِّكَ؟ أو تَسْكُنَ نَفْسُكَ للإيمان بمِثْلِ هذا الخالق؟ أو تستطيع أنْ تَصِفَ هذا الخالق بالعدالة؟

فَمِثْلُ هؤلاء العَجْولينَ السطحيينَ، زَعَمُوا أنهم يُنَزِّهُونَ الإله عن إيقاعِ العذاب، فوصفوه جرياً مع أهوائهم، بالظلم، وتغافلوا عما يقعُ من وراءِ حكمهم هذا من انتشارِ الفوضى والمظالمِ بين الناس، مما يهدمُ المجتمعَ، ويُنْذِر بأسْوأ العواقب.

ولم يهمل القرآنُ الكريم الإشارةَ إلى هذا المعنى، حيث

أبى أنْ يُسَوِّي بين الطَيِّبِ والخبيثِ، والمُحْسِنِ والمسيء في آياتٍ كثيرة منها:

﴿قل لا يستوي الخبيثُ والطيبُ، ولو أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿أم نجعل المتقين كالفجَّار﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحُوا السيئاتِ أنْ نَجْعَلَهُمْ كالذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ سواءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهم ساءَ ما يَحْكُمون﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿وما يَسْتَوي الأعمى والبصير، ولا الظُّلُماتُ ولا النور. ولا الظِلُّ ولا الحَرُور، وما يَستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ إن الله يُسْمِعُ مَنْ يشاء. وما أنتِ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القبور﴾ [فاطر: ١٩، ٢٢].

وهكذا تجد أنه لا مَناصَ من يومٍ عظيم، تُرَدُّ فيه المظالِمُ، وتُعَادُ فيه الحقوقُ، وتزولُ فيه الشبهات، فَيَسْعَدُ الصالحُ المستقيم بما كَسَبَ، ويَشْقَى الظالِمُ المستبدُّ بما اكتسبَ، جزاءً وفاقاً ﴿ألا يَظُنُّ أولئكَ أنهم مبعوثونَ، ليومٍ عظيم. يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾. [المطففين: ٤، ٦].

الخلـــود

حينما نَذْكُرُ الخُلودَ والبقاءَ نذكرُ إلى جانبه العَدَمَ والفناء.

والعَدَمُ، إما مُطْلَقٌ، أو نسبي، والفرقُ بينهما كبير خطير.

أما العَدَمُ المطلق، فَمُحَالٌ كما تَبَيَّنَّا من قَبْلُ، وأما العَدَمُ النسبي، أو الإضافي، فهو تَحَوُّلُ الشيءِ من حالةٍ إلى أخرى، فيختفي عن بعضِ الحواس، ويظهرُ لبعضها، أو يختفي عن الحِسِّ جُملةً، ويظهرُ للعقلِ، ونسمي هذا التحولَ عَدَماً أحياناً، دونَ التمييزِ بين العَدَمِ المطلق، والعَدَمِ النسبي.

ولإيضاح ذلك نضربُ بعضَ الأمثلة: إننا نجدُ الماءَ مثلاً يتعرضُ لحالات ثلاث: السيولة، والجمود، والغازية، وكلما تَحَوَّلَ من حالةٍ إلى أخرى، اختفت بعضُ الصفاتِ، وظهرتْ صفاتٌ أخرى، حتى إذا تَحَوَّلَ إلى بخار، ظننتَ أنه زالَ من الوجود، وانعدمَ بالكلية، ولكن: هل انعدم الماءُ حقيقة، أم أنه مَصُونٌ محفوظٌ في الجو، لم ينقص من كتلته شيء؟!

الحقيقة: أنه لم ينعدمْ ولم ينقصْ من كتلتهِ شيءٌ. بل أُفَلَ أُفولاً عن العينِ فقط، ووزنُه الجوهريُّ ثابتٌ، سواء كان ثلجاً جامداً، أو ماءً سائلاً، أو غازاً متبخراً. وكما أنه يُخَيَّلُ إلى الجاهلِ بهذه التجربة، أننا أَصَرْنَا جسماً إلى العدم، فذلك يمكن أنْ يُخَيَّلَ إليه أننا نُوجِدُ، جُرْمَاً من العدم حينما نُمَيِّعُ الهواءَ أو نجمده، فنحيله إلى جُرْمٍ محسوسٍ، بعد أن كان خَفِيَّاً عن الأبصار.

وإذا أحرقنا قطعةً من الخشبِ، ظننا أنها انعدمت، ولكنها لم تنعدمْ، بل تَحوَّلَتْ كتلتُها الجامدةُ إلى ذراتٍ فحميةٍ في الأرض (رماد) وذراتٍ فحمية في الهواء (دخان) وغازات، وبخار ماء، وحرارة. وبجمعِ الأوزانِ الجوهريةِ لمحاصيلِ الاحتراقِ نحصل على الوزنِ الجوهريِّ لقطعةِ الخشبِ المذكورة كاملاً، إذن: لم تنعدمْ قطعةُ الخشب، وإنما تحولت من حالةٍ إلى أخرى.

وقد ينتقلُ المُمَارِي إلى مثالٍ آخر أَخْفَى على النظر، يَتوهَّمُ منه العَدَمَ، فيضربُ احتراقَ البنزين مَثَلاً حينما لا يرى بعد الاحتراقِ رماداً ولا دخاناً، ونحنُ نعلمُ أنه لا يقولُ بهذا

القولِ مُطَّلعٌ على العلمِ الحديث، ولكننا نقولُ لهذا السائل: إنَّ البنزينَ قد تَحَوَّلَ بفعلِ الاحتراقِ إلى غاز الفحم والهيدروجين مع طاقةٍ حَرُوريةٍ، ومجموعُ الوزن الجوهري للغازين الحاصلين ـ باستثناء الأوكسجين المأخوذ من الهواء ـ يساوي الوزنَ الجوهريَّ للبنزين المحترق، وتلك حقيقةٌ علميةٌ ثابتة، إذن فالبنزينُ لم ينعدم، ولم يخرج من الوجود، والغازاتُ الناتجة منه محصورةٌ في الجو، وإنما تَحَوَّلَ من حالةٍ إلى أُخرى.

ولعلَّ هذا المثالَ يفضحُ جهلَ ذلك الجاهلِ الذي ضرب لنفاد الإنسان ـ مثلاً شمعة تحترق، فَظَنَّ باحتراقِهَا أنها انعدمتْ وزالتْ حقيقَتُهَا من الوجودِ ـ وهكذا ينكشفُ لكَ أنَّ الصورةَ التي يُصَوِّرُهَا الجاحدُ، وتظهرُ لأولِ وهلة أنها مفحمة، لا تثبتُ للنقدِ العلمي، وسرعانَ ما يظهرُ زِيْفُهَا وبطلانها.

فيظهر من الأمثلة المتقدمة، تَعَاقُبُ وجودٍ على عَدَم، وعَدَمٍ على وجود، وكُلُّه من العَدَمِ النسبي الذي لو سميناه أُفولاً أو تَحَوُّلاً، لكانتِ التسميةُ أقربَ إلى الصواب، وأبعدَ عن الوقوعِ في تَوَهُّمِ العَدَمِ المطلق وظَنِّ النفاد.

إذا عرفت ما تقـدم، وتَيَقَّنْتَهُ عقلاً وعلماً، ثَبَتَ لديك أنه ليس ثَمَّـةَ فنـاءٌ لمـوجـودٍ، ولا وجـودٌ لمعدومٍ، وذلك بنسبة الحوادثِ بعضِها إلى بعضٍ، لا بنسبةِ الحوادثِ إلى المطلق غير الحادث، وهو الخالق الأعظم.

وبهـذه الجملةِ الأخيرة نمتـازُ في بحثنـا على (لافوازييه Lavoisier) حيث قال: «لا شيءَ يُوجَدُ، ولا شيءَ يُعدم، والكلُّ يتحوَّل» فإنَّ ذلكَ يَصْدُقُ على الأشياءِ فيما بينها فحسب، فإنْ لم يُلاحظ أنها حادثةٌ في الأصل ـ كما أثبتنا ـ كان المعنى أنها قديمةٌ وذلك باطلٌ كما بَيَّنَّا ـ وإن لم يلاحظ أنَّ الذي أوجدها من العَـدَمِ قادرٌ على إحالتها إليه، كان غافلاً عن هذه الحقيقة، (ونَسَبَ العجـزَ إلى الخـالق المطلق) اذكر (القاعدة الثانية)، ولـذلك فإنَّ قولَهُ صحيحٌ بنسبةِ الحوادثِ بعضها إلى بعضٍ، وباطلٌ بنسبتها إلى خالقها، بعد أنْ ثَبَتَ لدينا حُدوثُ الأشياءِ، وقِدَمُ خالقها.

وما ضَلَّ بعضُ العلماء في هذا الميدان، إلا أنهم يَنْظُرونَ من جانبٍ واحد، فَيُطْلِقُونَ الحُكْمَ من حيثُ هو نسبيٌّ، أو أنَّهم لا يذهبونَ في معالجةِ هذه الأمورِ إلى الأصل، لكي يأتي الفَرْعُ

منسجماً معه، ويكون الحكم نتيجة له.

نجد إذن أنَّ مظاهرَ الأشياء تتعاقبُ، وتَمُرُّ من حالةٍ إلى أُخرى فقط، ولا يستطيعُ عالِمٌ في الدنيا مهما أُوتِيَ من قوةٍ أن يُعدم ذرةً من الوجود، أو يضيفَ ذرةً إلى الوجود، ويُجْمع العلماءُ على عَدَمِ ضياعِ المادة، ويُقَرِّون أنها تتحولُ إلى قدرةٍ، والقدرةُ إلى مادةٍ، والكُلُّ مَصُونٌ ثابتٌ في الوجود.

والخلاصةُ التي نَسْتَنْتِجُهَا من الأمثلةِ المُتَقَدِّمةِ، أنَّ الأشياءَ مستقرةٌ ثابتةٌ، وإنْ كانت تتحولُ من حالةٍ إلى أخرى، أي أنها باقيةٌ لا تنعدم، وإنما تتعرضُ للعَدَمِ النسبيِّ فحسب، إذن فالموجوداتُ خالدة، بغضِّ النَظرِ عن الحالةِ التي تؤولُ إليها، أو نوعِ الوجودِ التي تصيرُ إليه، والخلودُ هو النتيجةُ المنطقية العلمية، والعَدَمُ هو الذي يحتاج إلى الدليل ولا دليلَ عليه. ومثل ذلك حالُ الإنسان حينما ينبعثُ إلى العالم الآخر، لا بُدَّ أنْ يكونَ بهذا المقتضى خالداً أبداً، وقد أشارت الآيات إلى ذلك الخلود، في النعيم أو الجحيم، ومنها.

﴿جَزَاؤُهم عِنْدَ رَبِّهم جناتُ عَدْنٍ تَجْرِي من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً، رَضِيَ اللهُ عنهم، ورَضُوا عنه، ذلك لمن

خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

﴿إنَّ اللهَ لَعَنَ الكافرينَ وأَعَدَّ لهم سَعِيراً. خالدينَ فيها أبداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً ولا نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]. وقد تَكَرَّرَ ذِكْرُ الخلودِ والتأبيدِ مجزوماً به في آياتٍ كثيرة. ولكننا لاحظنا من قَبْلُ أنَّ هذا الخلودَ لا بد أنه مرهونٌ لمشيئةِ الخالق، وقد وجدنا هذا الاستثناءَ في موضعين من القرآنِ، أحدهما في [سورة هود: ١٠٧] ﴿خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ، إلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ﴾.

والآخرُ في سورة الأنعام:

﴿قال النارُ مَثْوَاكُمْ خالدينَ فيها إلاَّ ما شاءَ الله إنَّ رَبَّكَ حكيمٌ عليم﴾.

وهذا هو الفَرْقُ بين خلودِ المخلوقِ المتعلق بإرادةِ الخالق، وأبديةِ الخالقِ المُطْلَقَةِ التي لا يفتقرُ فيها إلى سواه، وهذه هي الحكمةُ من هذا الاستثناء، وقد جاءت ضرورةُ إيرادها للتفريق، وهذا هو المعنى الذي أكَّدْنَاهُ في أولِ البحث، واستدركناه على (لافوازييه) حينما قلنا: إنَّ انعدامَ الأشياء أو إيجادَهَا مستحيلٌ بنسبة الأشياء بعضِها إلى بعضٍ، لا بنسبةِ الأشياءِ إلى خالِقِها،

وهو الاستثناءُ عَيْنُه الواردُ في الآية. ﴿إلا ما شاء ربك﴾.

وقد يقولُ قائلٌ: إنَّ هذا الخلودَ للمادةِ، فماذا يُجْدِي الإنسانَ خُلودُ مادتهِ دونَ رُوحِه ولكننا أثبتنا في الفصل السابق عودةَ الحياة إليه، وأثبتنا هنا أنَّ الأصلَ في المادةِ البقاء، وأنَّ العَدَمَ لم يَقُمْ عليه دليلٌ، فَتَحَصَّلَ لنا بذلك خلودُ مادتهِ وعودةُ حياته.

إذن فقد تَقَرَّرَ لدينا أنَّ الخلودَ هو المقدورُ للموجود، وأن الإنسان حينما ينبعثُ ليومِ الحساب، مُخَلَّدٌ أبداً في النعيمِ، أو في العذابِ المقيم، على حَسْبِ ما قَدَّمَ من خيرٍ أو شر.

وقد تُفْسِدُ عليكَ الأمرَ مُخَيِّلَتُكَ، فَتُصَوِّرُ لكَ العذابَ حُفْرَةً صغيرةً من حَطَبٍ ولهب، وهي أقربُ إلى الاستخفافِ منها إلى الرهبةِ والخشية، كما تُصَوِّرُ لكَ الجنةَ ونعيمها، صورةً مُصْطَنعةً مُشَوَّهة، لا تُحَرِّكُ فيكَ شَوْقاً ولا رغبةً. وما كانَ تبديدُ الخَشْيةِ من العذاب، والقضاء على الرغبة في النعيم في عالَمِ خَيالِكَ إلا تَخَلُّصاً من ٱلقيامِ بالواجب، والرضوخِ للتكليف، فينشأ عنه عَدَمُ التقدير لتلك العواقب الخطيرةِ في السعادةِ أو الشقاء.

وهذا كله من غوائلِ الخيالِ عند الإنسان، وإلا فإنَّ أحَدَنا

إذا أَنْـذَرَهُ خَطَرٌ مُحْـدِقٌ، لا يَطْمَئِنُّ ولا ينـام، ولا يَسْتَمْـرِئُ الشرابَ ولا الطعام، وإذا أُغرمَ بصورةٍ من صُوَرِ الجمال، بَذَلَ الجهد كله في سبيلِ نَيْلِها، والوصولِ إليها، ولو كان فيها حَتْفُهُ أحياناً.

فالخيالُ مُتَّهَمٌ في هذا الشـأن، يجعـلُ الحقيقـةَ وهمـاً كالسرابِ ويجعلُ الوهمَ حقيقةً؛ فإذا عرفتَ أيها اللبيبُ أنه لا بُدَّ من المَعَادِ، ولا مَنَاصَ من الخلودِ في سعادةٍ أو شقاء، فاخْتَرْ لنفسكَ أحدَ المَوْرِدَيْنِ من مصيرٍ محتوم.

سُـبُل الضَّـــلال

قد تَعْجَبْ بعد ظهورِ الحقِّ من إعراضِ كثيرٍ من الناس عنه، وسلوكهم سبيلَ الباطل، وقد تتساءل ـ لقوةِ الحجة وظهورِ البـرهان ـ لماذا لا يؤمنُ الناسُ جميعاً؟ فما هي العواملُ التي تحولُ دونَ الإيمان، وتصرفُ الناسَ عن الحق؟

من المعلوم البديهي أنَّ المرءَ لا يُسَلِّمُ بأمرٍ، ما لم يَطَّلِعْ عليه ويَثْبُتْ لديه، إذن فَعِلْمُه شرطٌ للقناعةِ والتسليم، فالسببُ الأول من أسبابِ الضلالِ هو الجهل.

ولقد ضَلَّ كثيرٌ من الناس جهلاً، لم يَصِلْ إلى مسامعهم بلاغٌ، ولم يَلْجَؤُوا بأنفسهم إلى علمٍ وبرهان.

وإنَّ منهم مَنْ عاش في الجهـل ومات عليه، ومنهم من خاض في البحث على جهلٍ فَضَلَّ وأضَلَّ، ومنهم مَنْ جرى مع التيارِ الغـالب، وقَلَّدَ النهـجَ الشـائع تقليداً أعمى، فَمَنْ قلَّدَ الأشرارَ، أصابَهُ كِفْلٌ من الشر، ومَنْ قلد الأخيارَ، أصابه نصيب

من الخير، ولكنه لا يبلغ به مستوى العلماء، وشَرُّ أنواع الجهل إذا اقترنَ باعتدادِ النفس، أو ظَنِّ العلم، فَجَالَ صاحبُه وصالَ في ميادينِ العلمِ والفلسفة، والفن والتربية، فكان خطراً على نَفْسِـه وغيره، ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدى ولا كتابٍ منير. ثانيَ عِطْفِه لِيُضِلَّ عن سبيلِ الله له في الدنيا خِزْيٌ ونُذِيقُه يومَ القيامة عذابَ الحريق﴾ [الحج : ٨-٩].

على أنَّ الجاهلَ إذا تبرأ من الهوى والخوف والكِبْر، تلك الآفـات التي سَنُفْصِّـلُ فيهـا، كان أولَ الناسِ اتباعاً للحق، وأَوْلاَهُمْ بالإذعـان للحجـة، وأكثـرهم استفادةً من النصيحة، ولكن الجـاهلين أصناف: فمنهم مَنْ يملكُ الاستعدادَ للفهم والتحقيق، ومنهم مَنْ لا تَتَّسِعُ مدارِكُه لشيءٍ من ذلك، فَيَضِلُّ الصِنفُ الأول لعـدم الاطـلاع، ويضـل الصنفُ الثاني لعدم الاستعداد، فَوَجَبَ أن يكلم كُلٌّ على حسبِ استعدادِه، ومَبْلَغِ فَهْمِه، دونَ اللجوء إلى الخدعة أو الافتراء. ولا بد أن يحصل بذلـك تفـاوتٌ في المعـرفة، ولكنه كالتفاوتِ بين المهندسِ والعاملِ في صنع الآلة، كلٌّ عَلِمَ على قدره، فَعَمِلَ في مجال علمه، وكلٌّ أفادَ واستفاد.

فالسبيل الأول من سُبُلِ الضلال هو الجهلُ، وقد صرف كثيراً من الناس عن اتباعِ سبيلِ الحق، فإنْ تَعْجَبْ، فإنَّ بعضَ العجبِ يزولُ حينما ترى ما تفعلُه آفةُ الجهل في النفوس.

وأما السبيل الثاني من سبل الضلال، فهو سبيل الهوى:

إنَّ النفسَ البشـرية تَوَّاقَـةٌ إلى الانـطلاق، متجـافيةٌ عن القيود، تستعجـلُ الشهـوةَ، وتبحثُ عن اللذة، ولا تصبرُ عن شيءٍ من ذلك، ما لم يتبين لها خَطَرُهُ، أو يَنَلْهَا ضَرَرُه، والفرقُ بين مَنْ يُذْعِن للقيود، ومَنْ لا يتقيد بالحدود، أنَّ الأول رَضِيَ بتقيدٍ وقتي، لينطلق بعده من التقيد، وأن الثاني لم يُبْعِدِ النظرَ، فآثرَ الانطلاقَ الوقتيَ، متحملاً آثاره وعواقبه، لغلَبةِ الهوى عليه.

والفرق بين الجَهَلة، وأصحابِ الأهواءِ في الانصرافِ عن الحق أن هؤلاء مِمَّنْ ضَلَّ على علمٍ، فإنْ لم يكن ذلك، كانوا مصابين بآفتين: الجهلِ والهوى، وشَرٌّ من ذلك إذا اقترنَ الهوى بالكِبْرِ كما سيمر معنا، فإنه أعسرُ أنواعِ الداء، وأخطرُ سُبُلِ الضلال.

وأصحاب الهوى يختلفون باختلاف آلهتهم التي يعبدون

من دون الله:

﴿أَرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَواهُ، أَفأَنْتَ تكونُ عليه وكيلاً؟!﴾ [الفرقان: ٤٣].

فمنهم مَنْ أُغْرِمَ بالمرأة حتى أَعْرَضَ عن كُلِّ ما يحولُ بينه وبينها، ومنهم من أُغرمَ بالأموال، حتى شغلته عن اتباعِ الحق: ﴿شَغَلَتْنَا أموالُنَا وأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]. ومنهم مَنِ استنفد الجُهْدَ في الجاهِ والمنصب، ومنهم مَنْ جمع تلك الحظوظ، فسعى إلى اقتناصِ اللذةِ في مطعمٍ ومنكحٍ وملبس، أو التسلطِ على الناس، في عُلُوِّ جاهٍ ومنصب، وجعلَ المُثُلَ العليا وراءَ ظهره، كأنها ليستْ منه في نَسَبٍ، وليس منها في سبب ﴿زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشَّهواتِ من النساءِ والبَنِينَ والقناطيرِ المُقَنْطَرَةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحَرْثِ، ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا، واللهُ عندهُ حُسْنُ المآب﴾ [آل عمران: ١٤].

ومن علائمِ أصحابِ الهوى أنَّ الهوى يضربُ على قلوبهم حجاباً يحولُ بينهم وبين فَهْمِ ما يُلْقىٰ إليهم، فلا يَعُونَ خطاباً، ولا يُصْغُونَ إلى نصيحةٍ، وكأنَّ الخطابَ لا يصل منهم إلى

موضع الإدراك، ولقد نَبَّهَ القرآنُ الكريم إلى هذه العِلَّةِ النفسية في الآية الكريمة: ﴿ومنهم مَنْ يستمعُ إليكَ حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أُوتُوا العلم ماذا قالَ آنفاً﴾ [محمد: ١٦].

ومن آفاتِ الهوى تَصَوُّرُ الغاوي أنْ لا شِفاءَ لقلبِهِ دونَ تحصيلِ غايتِهِ التي عَلَّقَ نَظَرَهُ بها، وأوى بِكُلِّيَّتِه إليها فهو حينما يُغْرَمُ بامرأةٍ بعينها، يجزمُ دونَ تردٍ، أنه لو اجتمعتْ نساءُ الدنيا بزينتهن، وأُتِمَّ فِتْنَتِهِنَّ، لما حَرَّكْنَ فيه رغبةً. ولا مَلَكْنَ لقلبِهِ شفاءً، ولا ريبَ أنه كاذبٌ على نفسه في هذا التصور، فَسَيُعْرِضُ عن هذه المرأةِ في يومٍ من الأيام، ويَتَعَلَّقُ بغيرها، ويجزمُ الجَزْمَ السابق، فيكذبُ على نفسه مرتين. وتتكررُ المشاهد بين نقضٍ وإبرام، وإقدام وإحجام، ويعجب المرء من نفسه حين يتحولُ من حال إلى حال بين تصديق وتكذيب.

ومن آفاتِ الهوى القاهرة أنه يَسْتَبِدُّ سلطانُه بصاحبه، حتى يغلبَ عليه، وهؤلاء هم الذين ضَلُّوا على عِلْمٍ، كالذي وصفته الآية الكريمة:

﴿وَاتْلُ عليهم نَبَأَ الذي آتَيْنَاهُ آياتِنَا فانسلخَ منها فَأَتْبَعَهُ الشيطانُ فكان من الغاوين. ولو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بها، ولكنه أَخْلَدَ

إلى الأرضِ واتَّبَعَ هَواهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وصِفاتهم العامة أنهم منهومون، شَرِهُونَ، مُسْتَكْثِرُونَ، تَحَكَّمَتْ بهم العاطفةُ المستبدة، وطَغَتْ عليهم الشهوةُ العارمة، لا يطيقون التحولَ عن طعامٍ أو شراب أو نكاح، وهم متفاوتون في الرجوعِ عن الباطلِ بمقدار تفاوتهم في التهالك على الشهوة، فإنَ كانت الشهوةُ جامحةً. والهوى مستحكماً، والأسباب متوفرة، كانت معالَجَتُهُمْ غايةً في الصعوبة، ونَدَرَ أنْ يَسْتَجِيبُوا لداعي الحق.

﴿فإنْ لم يَسْتَجِيبُوا لكَ فاعْلَمْ أنما يَتَّبِعُونَ أهواءهم، ومَنْ أضَلُّ مِمَّنْ اتبع هواهُ بغيرِ هُدى من الله﴾ [القصص: ٥٠].

ولسانُ حالِ هؤلاء حينما يجادلونكَ في الحق بعد ما تَبَيَّنَ: لو أبَحْتَ لي الزنا، ولو أحللتَ لي الخمر... ولو وهبتَ لي الكنوز... لاتبعتُ سبيلكَ، فتلكَ عقباتُ الهوى، لا يستطيعون تجاوزها، وقد صَدَّتْهُمْ عن الهدى، فَهَدَرَتْ إنسانيتهم، وقَضَتْ على إنتاجهم في مجالِ العلم والأخلاق.

ولو تَجَرَّدَ هؤلاء الغُواةُ من أوهامِ الهوى، لأدركُوا أنه ما وراءَ كأسِ الخمرِ إلا الضَّعْفُ والسقمُ، وما وراءَ فتنةِ الأُنوثةِ التي

سَلَبتهم عقولهم، إلا إراقة ماءٍ حار[1] وأن الذي يُرَادُ بهم من أمرِ الحياة أجَلٌ وأسمى، ولا بُدَّ أنْ يدركوا ذلك في آخرِ المطاف، ولكن بعد فواتِ الأوان.

والسبيلُ الثالث من سُبُلِ الضلال: سبيلُ الكِبْرِ والعِناد، فإنَّ صنفَ المتكبرين شَرُّ الأصنافِ في الأذى والإصرار على الباطل، تأبى عليهم كبرياؤُهم أنْ يسمعوا النصيحة، ويأبى عليهم عِنَادُهم أنْ يرجعوا عن الخطيئة، مبالغةً في الدوران حول الذات، واستغراقاً في الأَثَرة، وتجاهلاً للفضل حيثما ظهر.

فمنهم مَنْ يجد الصَّغَارَ في الإصغاءِ، ومنهم مَنْ يَأْنَفُ من تقويم الأخطاء، وينكر أنَّ به حاجةً لأحدٍ من الناس. وبهذا يتبينُ أنَّ الكِبْرَ مبنيٌّ على وَهْمٍ لا حقيقةَ له، فأي بشر لا يخطىء، فيحتاج لمن يُظْهِرُ له خَطَأَهُ ويرشده إلى الصواب؟! وخطؤه هذا تكذيبٌ لأنانيته التي قادته إلى الاستكبار، وخدعته حينما خَيَّلَتْ إليه أنْ لا حاجةَ به إلى أحد، وأي بشر لا يَمَسُّهُ

---

(١) أما الحاجةُ الغريزيةُ الضرورية، فقد نظمها الزواج، وأما العلاقة الزوجية النبيلة وما تشتمل عليه من عواطف المودة والوفاء بين الرجل والمرأة، فهي مَحْضُ الخيرِ، وليست في الصدد.

السوءُ من الفقر والهرمِ والمرض، فيحتاج لمن يُعِينُه ويواسيه، أو يشـد أَزْرَهُ ويداويه؟! فَظَنُّ الاستغنـاء باطل، والترفُّعُ بذلك الظَّنِّ فاسد، ولا حَقَّ للإنسان بذلك بعد ثبوتِ ضَعْفِه وعَجْزِه وخطئه!

إذن فالنـاسُ بحكم بشـريتهم الضعيفـة، القـابلةِ للخطأ والصواب، والصحةِ والسقمِ يحتاجُ بعضُهم لبعضٍ، شاؤوا أم أبوا!

فأين أمست حقيقةُ الاستكبار أمام واقعِ الإنسان القاهر؟ لقد تَكَبَّرَ فرعونُ، وادعى لنفسهِ ما ليسَ له بحق فنادى ﴿أنا رَبُّكُمُ الأعلى﴾ [النـازعـات: ٢٤]. فلما ضعفت نَفْسُه عن مقاومةِ الغرق، نادى: ﴿آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بَنُو إسرائيل﴾ [يونس: ٩٠].

ومثل قصة فرعون في الاستكبار والخسار كثيرٌ في واقعنا اليوم لمن أبصر وتَفَكَّرَ، وتُعْرَضُ مشاهده علينا في أكثر من منظر!

ويَلَجُّ المستكبـرون في العنـاد، فيخـرجونك عن الصَّدَدِ الـذي تَدْعُـوهم إليه، ويطالبونك بالخوارقِ، تعجيزاً لكل مَنْ يدعـوهم إلى الحق، ولـو أرادوا الحق لوصلوا إليه من أقـرب

طريق، وقد أشار القرآنُ الكريم إلى هذا الفريق من هذه الوجهة، كما في الآيات التالية:

﴿وقالوا لن نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنْبُوعاً. أو تكونَ لك جَنَّةٌ من نخيلٍ وعنب فتفجرَ الأنهارَ خلالها تفجيراً. أو تُسْقِطَ السماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً. أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ، أو تَرْقَى في السماء، ولن نؤمنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه، قُلْ سبحانَ ربي هل كنتُ إلا بَشَراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

﴿ولو نَزَّلْنا عليكَ كِتاباً في قِرْطاسٍ فلمسوه بأيديهم، لقال الذين كَفَرُوا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين﴾ [الأنعام: ٧].

﴿وجَحَدُوا بها، واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهم ظُلماً وعُلُوّاً﴾ [النمل: ١٤].

ومن خَطَرِ الاستكبار، امتدادُ ضرره إلى عامة الناس حيث يخضعُ فيه الضعيفُ للقويِّ، والفقير للغني، لإصرار المستكبر على الضلال، وضعف المستضعف في المقاومة، فتحيطُ العاقبةُ السيئةُ بالإثنين، وتكون وبالاً على الطرفين.

وتصويراً لهذه العاقبة الأليمة وما يجره المتكبرون على المستضعفين الخاضعين المشتركين في الجريمة يمكنك أنْ تقرأ هذه المحاورة بين المتكبرين والمستضعفين بعد أنْ حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب في الآيات التالية:

﴿ولو تَرَى إذِ الظالمونَ مَوْقُوفونَ عند رَبِّهم، يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ، يقولُ الذين استُضْعِفُوا للذين استكْبَرُوا: لولا أنتم لكُنَّا مؤمنين. قالَ الذي استكبروا للذين استُضْعِفُوا: أنحنُ صَدَدْنَاكُمْ عن الهُدَى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين. وقال الذين استُضْعِفُوا للذين استكبروا بَلْ مَكْرُ الليلِ والنهارِ إذْ تَأْمُرُونَنَا أنْ نكفرَ بالله، ونجعل له أندادا، وأَسَرُّوا الندامةَ لما رَأَوُا العذاب﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

يتبين لك إذن أنَّ صنفَ المتكبرين أخطرُ الأصنافِ غائلةً على نفسِ صاحبِهِ، وأشدها نِكايةً على الناس، فهم ضالون مُضِلُّون، وما وقَفَ في وجهِ الحق منذ العصورِ الأولى ـ مُعَانِداً محارباً، ومنذراً مُهَدِّداً ـ كالمتكبرينَ، فحملوا أوزارهم كاملةً، ومن أوزارِ الذين أضَلُّوهم بغيرِ علم، ألا ساء ما يزرون.

والسبيلُ الرابع من سبل الضلال، هو سبيل الخوف، تلك

الآفةُ التي قعدتْ بكثيرٍ من الناسِ عَن سلوكِ سبيلِ الحق، ذلك أنَّ الخوفَ حَذَرٌ مفرط، وتردد وإحجام، ولذلك تجد الخائفينَ في الصفوفِ الأخيرةِ من المجتمع، سلبيين، خاسرين، وقَلَّ أنْ تجدَ جباناً ربح معركةً، أو بنى مجداً، أو عاد على مجتمعه بالخير. والحقُّ يستلزمُ لمن يقولُ به ويعمل له، جرأةً وثباتاً، وتضحيةً، وهي عناصرُ يفقدها الجبان. ومما يعودُ به خوفُهم على المجتمع من الضررِ خذلانُهم لدعاةِ الحق، بقعودهم عن نُصْرَتِهم، وإعراضهم عن الحَقِّ بعدما تَبَيَّنَ، ولقد ذَمَّتْ بعضُ الآياتِ الكريمة الخوفَ والفَرَق، وجعلته مُنافياً للإيمان، كأنَّ الخائفَ يقفُ خوفُه حجاباً يحولُ بينه وبين الإقرار بالحق، حين يقتضيه الحق جُرْأةً وتضحية.

﴿ويحلفون بالله إنَّهُمْ لَمِنْكُم، وما هُمْ منكم ولكنهم قومٌ يَفْرَقُون[1]. لو يَجِدُون مَلْجَأً، أو مغاراتٍ، أو مدخلاً، لَوَلَّوْا إليه وهم يَجْمَحُون﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

وعلى العكس من ذلك مَجَّدَ القرآنُ الجرأةَ والقوة،

---

(١) يفرقون: يخافون.

والشجاعة، تلك العناصر التي تحولُ بين المرء وبين الضلال، إذا كان مَرَدُّه الخوفُ، كما في الآيات التالية:

﴿يجاهدون في سبيلِ الله ولا يَخَافُونَ لومةَ لائم﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ولا يَخْشَوْنَ أحداً إلا الله﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿خُذُوا ما آتيناكم بقوة﴾ [البقرة: ٦٣].

وخيرُ مثالٍ ورد في القرآن عن ثباتِ أصحابِ العقيدة وقوتهم مثالُ سَحَرَةِ فرعون في ثباتهم وشجاعتهم على الرغم من تهديدهم بالصلبِ والقتل، وانظر إلى وصف ذلك الثباتِ الخارق في الآيات التالية:

﴿قال آمنتُمْ له قَبْلَ أنْ آذَنَ لكم إنه لكبيركُم الذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أيديَكُمْ وأرجُلَكُمْ من خِلاف، ولأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النخلِ، ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنَا أشَدُّ عذاباً وأبقى. قالوا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من البَيِّنَاتِ والذي فطرنا، فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنما تَقْضِي هذه الحياةَ الدنيا﴾ [طه: ٧١-٧٢].

وقد ورد في الحديث الصحيح عن رسولِ الله ﷺ:

«قـد كان مَنْ قبلكم يُؤْخَـذُ الرجلُ فَيُحْفَرُ له في الأرض فيجعـل فيهـا، ثم يُؤْتَى بالمنشار فيوضَعُ على رأسه، فَيُجْعَلُ نصفين ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمهِ وعظمه ما يَصُدُّه ذلك عن دِينه».

فإنْ لم يكن للمـرء نصيبٌ من هذا الثبـاتِ أمـامَ البأس والخطر، يُخْشَى عليه أنْ يسلكَ سبيلَ الضلالِ بسبب الخوف والهلع.

فتلك خطوطٌ أربعـةٌ بارزة: الجهـل، والهـوى، والكبر، والخـوف، ترسمُ طريقَ الخطر، وتقودُ إلى سوء المصير، وقد تَتَفَـرَّعُ عنهـا الفروعُ، وقد تُضَافُ إليها بعضُ المعالم، ولكنَّ بحثنا في هذه الرسالة في حدود الأصولِ دون الفرع.

الخاتمة

من الناس مَنْ يعرفُ الحق ولا يؤمنُ به، ومنهم مَنْ يؤمنُ بالحق ولا يعمل به، فلا يَصُدَّنَّكَ أحدهما عن الحق بعدما تبين.

ومنهم مَنْ يؤمن ولا يستقر على الإيمان لما يطرأُ على فِكْرِهِ من الشبهات، فلا يستطيعُ تمحيصَ الحق من الباطل، فالحق الذي وصلتَ إليه يستلزمُ أنْ تقومَ عليه بفكرٍ ثاقب، وصبرٍ دائب، لكي لا تتطرقَ إلى خيالكَ الشبهاتُ، ولا تقوم في طريقك العقبات، وكُنْ شجرةً راسخة الأصل في الأرض، باسقةَ الفرع في السماء، لا تنالُ منها الرياحُ الهُوجُ، إلا كما ينالُ النسيمُ العليلُ من الجبلِ الصَّلْد الأشم.

واعلمْ أنَّ الغوائل التي تَصْرِفُ عن الحق كثيرةٌ على غير الفَطِن، قليلةٌ على اللبيب الحَذِر، ومنها خدعة الخيال البشري، حيث يبدأ خيالك يُصَوِّر لك الإله ـ الذي أقررتَ

بوجوده، وقُدْرَته وتَصْريفه ـ على غفلةٍ منك كائناً يشبه الإنسان، جالساً في السماء، منفصلاً عن الأرض، لا يتصلُ بها بعلمٍ ولا قدرة، وترى إلى جانب ذلك نمو النبات، وتوالد الإنسان والحيوان، ودوران الكواكب وما يستلزمُ كُلُّ ذلك من تدبيرٍ وإتقان، فيداخلك في ذلك ما يداخلُ المرتابَ من استحالةِ وصولِ قدرةِ ذلك الإلهِ إلى تلك الكائنات، وتصرفه في تلك الحادثات، فهو إذن بحكم هذه الصورة الخيالية، لا يَضُرُّ ولا ينفع، ولا يتصرفُ ولا يدبر، ولا يقدم ولا يؤخر.

هذه مغالطةٌ كبرى، وغائلةٌ خيالية خَطِرة، طالما تَرَدَّى فيها كثير من البشر، ولو عقلَ الذين انطلت عليهم الخدعةُ، وسيطر عليهم الخيال، فنسوا معالمَ الحقيقةِ، لأدركوا أنهم حين كفروا، لم يكفروا بالإله الحق الذي ليس كَمِثْلِه شيءٌ، والذي وَسِعَ كُلَّ شيءٍ قُدْرةً وعلماً، وإنما كفروا بالذي صَنَعَتْهُ أيديهم، وصاغته مُخَيِّلَتُهم، كعابدِ الوثنِ حيثُ يصنعه بيده ثم إذا بَدَا له أنْ يَكْفُرَ به، كفرَ به، أو إذا جاعَ أكَلَه إن كان مما يُؤكل!

والحقيقةُ أنَّ مثلَ هذا الظن الخيالي الذي يمكن أن يُخَامِرَ الإنسان، لم يكن مُغْفَلاً في تاريخ الإيمان، ولا بعيداً عن جو

المحققين، كيف وهم يقرؤون الآية الكريمة: ﴿هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليم﴾ [الحديد: ٣] ولذلك رأيناهم منذ مئات السنين يَلْهَجُونَ بمثلِ هذا الدعاء الجميل: «اللهم إنك لستَ بإلهٍ استحدثناه ولا بربٍ يَبيدُ ذِكْرُه ابتدعناه» ليبين لك أنه ليس من نَسْجِ الخيال، فلا تَنطلي عليكَ تلك الخدعةُ، وإنه الحقُّ الذي فوق الخيال، وأنه ليس كمثله شيءٌ، وأنه بكل شيء محيط، فتقيم على الاعتقاد مُوقِناً مطمئناً، لا يعبثُ بكَ الخيالُ، ولا تصرفك عن الحق غائلةٌ من غوائل الضلال.

ومن الغوائل أيضاً: ما يُلْقِيه بعضُ العابثين المضلين من الشكوك والأوهام في أسماع المبتدئين ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يشتري لهوَ الحديثِ ليضل عن سبيلِ الله﴾ [لقمان: ٦]. فيثير قضية «القضاء والقدر» ويجعلها قضيةَ كُفْرٍ وإيمان، مع أنَّ إقحامَ هذه المسألة في مثل بحثنا هذا خروجٌ عن الموضوع، إذ أنها من الفروع، ونحنُ نتكلمُ في الأصول، وهَبْ أنك كنتَ تميلُ في هذه المسألة إلى الجبر، أو إلى القدرة، فهل يستلزمُ ذلك إلحاداً في الله واليوم الآخر؟!

إذن فهذه المسألةُ وأمثالها من الفروع، لا تأتي عقبةً في سبيل الإيمان، ولا تَصْدُرُ إلا عن مُغْرِضٍ، ولا تسلك إلا في أُذنٍ قاصر، أما العاقلُ البصيرُ الفَطِنُ المستنيرُ، فلا يستسلمُ لكلِّ خاطرٍ، ولا يُسَلِّمُ إلا لبرهانٍ قاهر.

والأجـدرُ بكَ أيهـا العاقلُ أنْ تسلكَ سبيلَ الحق بعد أن مَيَّزْتَها، وتتجنب سبيلَ الغواية بعد أن عرفتها، ذلك أن المُرادَ من النظرِ التحقيق، ومن القولِ العمل:

﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفعلون. كَبُرَ مَقْتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢-٣].

وإنَّ قولاً بلا عمل، كشجرةٍ بلا ثمر؛ بَلْ إنَّ العلوم الحديثةَ بأسـرهـا، لو لم تنتقـل من المجـالِ النـظري إلى المجـال (التطبيقي) لما أَجْدَتِ العالَمَ شيئاً[1].

فالإنسانُ يُفَكِّرُ ليعملَ، (ويخططُ) ليحقق، وإذا رأى الحق أقبلَ عليه، وإذا رأى الباطلَ أعرضَ عنه.

---

(١) نريد بذلـك جَدْواهـا في المكتشفـاتِ النافعة، لا في المخترعاتِ المدمرةِ التي جاءت نتيجةً لانعدامِ الإيمان وانهيار الأخلاق.

فالذين قرؤوا وعقلوا، عليهم أنْ يعملوا، ويدعوا الناسَ إلى الحَقِّ الـذي وجدوه، والقول الفصل الذي تَحَقَّقُوه، وهذا هو الفرقُ الكبير بين مبادىء الفلاسفة النظرية المقصورة على فريقٍ من النـاس، ودعـواتِ الـرسلِ العملية المنتشرة بين الناس. والحقيقةُ أنه لا يخرجُ المرء من التناقضِ المشين، ما لم يكن قولُه مطابقاً لعمله، ولا يجني من عمله شيئاً، ما لم يكن واقعاً فيه على الصواب.

ولعلك بعـد أنْ ذَكَّـرْتُـكَ بالعمل، يقعد بك عنه غَفْلَتُكَ الماضية، وذنوبكَ السالفة، فاعلمْ أنَّ اليأسَ لا يتطرقُ إلى ذهنِ المؤمنِ الحصيف، وأنَّ الـرجـوعَ عن الخـطأ فضيلة، وأنَ الانقـلابَ في حياةِ الأفـراد ليس بدعـاً جديداً، فلتكن هذه الذكرى تجديداً للعهد، وتبديلاً للنْهج، وإعلاناً للتوبة، وقضاء على اليأس والقنوط:

﴿قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تَقْنَطُوا من رحمةِ الله، إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم. وأَنيبُوا إلى رَبِّكم وأَسْلِمُوا له من قبل أنْ يأتيَكُمُ العذابُ ثم لا تُنْصَـرُون. واتَّبعُوا أحسنَ ما أُنزلَ إليكم من ربكم من قبل أنْ

يأتيكُمْ العذابُ بَغْتةً وأنتم لا تشعرون. أنْ تقولَ نفسٌ يا حسرتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله، وإنْ كنتُ لمن الساخرين. أو تقولَ لو أنَّ اللهَ هَداني لَكنتُ من المتقين. أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لي كَرَّةً فأكونَ من المحسنين﴾ [الزمر: ٥٣ـ٥٨].

ولا يفوتني أنْ أُذَكِّرَكَ ـ في النهاية ـ أنَّ الأمرَ غايةٌ في الجد، فإنك لم تُخْلَقْ عبثاً ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾! [المؤمنون: ١١٥].

وأن العاقبةَ في غايةِ الخطورة، فإما إلى نعيمٍ دائم، وإما إلى عذابٍ مقيم، وقَارِنْ بين هذين المنزلين، تدرك الفرقَ العظيم، أما المنزل الأول:

فـ ﴿على سُرُرٍ مَوْضُونة. مُتَّكِئينَ عليها متقابلين. يطوفُ عليهم ولدانٌ مُخَلَّدُون. بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعين. لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزِفون. وفاكهةٍ مما يَتَخَيَّرون. ولَحْمِ طيرٍ مما يشتهون. وحُورٍ عين كأمثالِ اللؤلؤ المكنون. جزاءً بما كانوا يعملون﴾ [الواقعة: ١٥ـ٢٤].

﴿إنَّ أصحابَ الجنةِ اليومَ في شُغلٍ فاكهون. هم وأزواجُهم في ظِلالٍ على الأرائكِ مُتَّكِئون. لهم فيها فاكهةٌ

ولهم ما يَدَّعُون. سلامٌ قولاً من رَبٍّ رحيم﴾ [يس: ٥٥ـ٥٨].

﴿إنَّ للمتقينَ مفـازا. حَدائقَ وأعنـابـا. وكـواعبَ أترابا. وكـأساً دِهاقا. لا يسمعونَ فيها لَغْواً ولا كِذَّابا. جزاءً من ربك عطاءً حِسابا﴾ [عم: ٣١ـ٣٦].

﴿وأُزْلِفَتِ الجنةُ للمتقينَ غيرَ بعيد. هذا ما تُوعَدُونَ لكلِّ أوَّابٍ حفيظ. مَنْ خَشِيَ الـرحمنَ بالغيبِ وجاء بقلبٍ منيب. ادخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخلود. لهم ما يَشاؤُون فيها ولدينا مَزِيد﴾ [ق: ٣١ـ٣٥].

وأما المنزل الثاني: فـ ﴿لهم نارُ جهنمَ لا يُقْضَى عليهم فيموتُوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها كذلك نَجْزي كُلَّ كَفُور. وهم يَصْـطَرِخُونَ فيها رَبَّنَا أخْرِجْنَا نعملْ صالحاً غيرَ الذي كنا نَعْمـل، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ وجاءكمُ النذيرُ، فَذُوقُوا فَمَا للظالمينَ من نصير﴾ [فاطر: ٣٦ـ٣٧].

﴿قـالـوا رَبَّنَـا غَلَبَتْ علينـا شِقْوَتُنَا وكنا قوماً ضالين. ربنا أخـرجنـا منهـا فإنْ عُدْنَـا فإنَّـا ظالمون. قال اخْسَؤُوا فيها ولا تُكَلِّمُـون. إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون رَبَّنَا آمنا فاغفرْ لنا وارْحَمْنَا وأنتَ خيرُ الراحمين. فاتَّخَذْتُموهم سِخْرِيًّا حتى أَنْسَوْكُمْ

ذِكْـرِي وكنتم منهم تَضْحكون. إني جَزَيتهمُ اليومَ بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون: ١٠٧-١١٢].

﴿وأَنْذِرِ الناسَ يومَ يأتيهمُ العذابُ فيقولُ الذين ظلموا رَبَّنا أَخِّرْنَا إلى أجلٍ قريبٍ نُجِبْ دعوتَكَ ونتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تكونوا أقسمتم من قَبْلُ ما لكم من زَوال. وسَكَنْتُم في مساكنِ الذين ظلموا أنفسهم وتَبَيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكمُ الأمثالَ. وقد مَكَرُوا مَكْرَهُم وعندَ اللهِ مكرهُم وإنْ كان مَكْرُهُم لِتَزُولَ منه الجبـال. فلا تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْـدِه رُسُلَهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ ذو انتقـام. يومَ تُبَـدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمـواتُ وبَرزوا للهِ الـواحـدِ القهار. وترى المجرمينَ يومئذٍ مُقَرَّنينَ في الأصفاد. سَرَابيلهم من قَطِرَانٍ وتَغْشَى وجوههم النار﴾ [إبراهيم: ٤٤-٥٠].

وإنـك على قَدْرِ عقلكَ وتقـديركَ للعـواقبِ تَتَّخِذُ موقفكَ لذلك المصيرِ المحتوم.

وعليك أيها اللبيبُ بعد هذا التحقيق أنْ تستزيدَ من العلم لكـي لا تقـف، فإنــه ليس لبحــرِ العلمِ غايةٌ، وأنْ تتحلى بالتواضع، لكي لا يحجبك الكِبْرُ عن رؤيةِ الحق، فإنَّ التواضعَ

مزيةُ العلماء، وزينةُ الحكماء، وأنْ تتدرعَ بالشجاعةِ، لكي لا تخشى الناس، فإنَّ خشيةَ الناس عَقَلَتْ ألسنَ الكثيرينَ عن الصَّدْعِ بالحق، وغَلَّتْ أيديهم عن فِعْلِ الصالحات، وأنْ تنهجَ نهجَ العدالة، كي لا تميلَ مع الهوى، فإنَّ كثيراً من الناس أَضَلَّتْهُمْ أهواؤهم، وأَرْدَتْهُمْ شَهواتهم، وأنْ تدعوَ الناسَ جميعاً ـ بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنة ـ لِمَا آمنتَ به، ووجدتَ أنه الحق.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِ العالمين.

حسن هويدي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الوجود	١١
السَّببية	١٨
الخالق العظيم	٢٦
الطبيعة	٤١
التوحيد	٥٢
أدلة القرآن	٥٩
النشأة الأولى	٥٩
النشأة الأخرى	٦٦
المصادفة	١٠٠
يوم الحساب	١٠٧
الخلود	١١٨

سبل الضلال ١٢٦
خاتمة ١٣٩
الفهرس ١٤٩